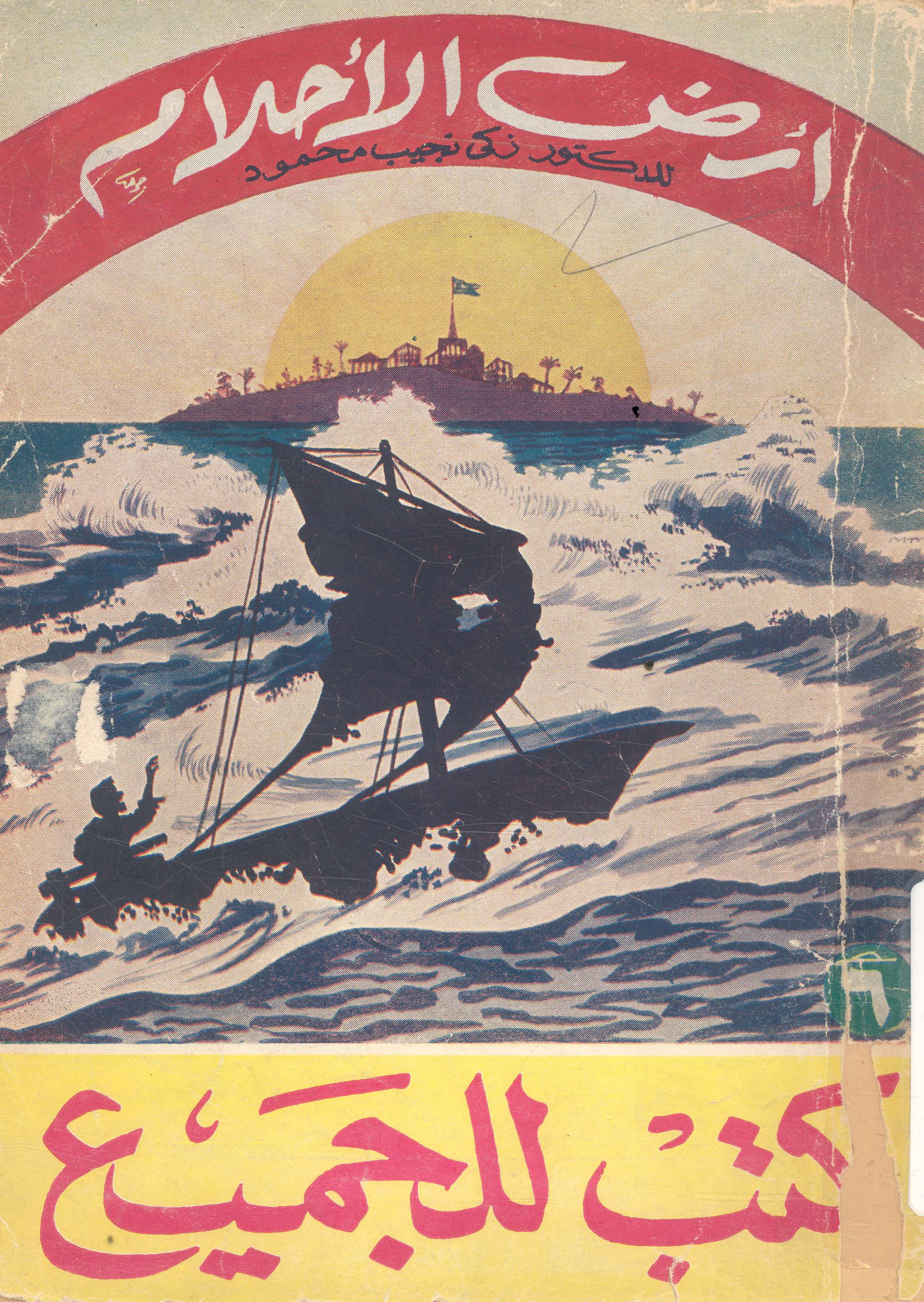

أرض الأحلام
للدكتور زكي نجيب محمود
٦
كتب للجميع



إهـــــداء 2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

أرض الأحلام

للدكتور زكي نجيب محمود

٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى ».



عندما يضيق الانسان ذرعا بالظروف المحيطة به ، ثم يعجز عن تغييرها على النحو الذي يرتضيه ، فانه يسترسل فى أحلامه ، ليظفر فى دنيا الخيال بما استحال عليه أن يظفر به في عالم الواقع

وليس كل انسان قادرا على أن يضيق ذرعا بما يحيط به من أسباب الشقاء والبؤس ! تلك عجيبة تستوقف النظر فى طبيعة البشر ، فقد ترى الناس ألوفا ألوفا ، قد حرمتهم هذه الدنيا كل مقومات الحياة الاولية ، فلا غذاء ولا رداء ولا مأوى ، وهم مع ذلك لا يشعرون بما أصابهم من حرمان ، كأنما عميت أبصارهم فلا ترى ، وصمت آذانهم فلا تسمع ، وتبلدت جلودهم فلا تحس !

وهكذا يظل المعذبون على عذابهم ، فلا شكاة ولا أنين ، حاسبين ان ما أصابتهم به الدنيا من ألوان الهموم وغلظة العيش هو الوضع الطبيعى للامر ، فهكذا خلقت لهم الحياة ، وهكذا خلقوا لها ، فليس لهم - اذن - أن يضيقوا ذرعا بها

لكن الله لا يهمل عباده أبد الابدين ، فيقيض لهم حينا بعد حين نفرا منهم ، لا يجيئون على ماهم فيه من عمى وصمم وبلادة احساس .. يقيض لهم نفرا منهم تكون لهم الاعين التى ترى أسباب البؤس والاذان التى تسمع أنين المتألمين ، والجلود التى تحس لذعات

العذاب ، فتكون لهم القدرة على التبرم بما حولهم والسخط على ما يحيط بهم ، بالعمل حينا وبالقول أحيانا

وغالبا مايكون الادباء أصحاب الحس المرهف فى طليعة الثائرين لانهم عادة أول من يدرك النقص والفساد ، فانظر مثلا الى الثورة الفرنسية ، تجد طلائعها هم رجال من حملة الاقلام ، مثل روسو وفولتير .. لانه يكفيك أن تفتح اعين الناس وآذانهم ليروا ماحولهم ويسمعوا ، لتكون بعد ذلك على يقين من اصلاح فعلى يأتى بعد حين قصير او طويل

ولهؤلاء الادباء - اذا كانوا من الطراز الاول - طريقتهم فى تنبيه الناس الى اوجه النقص فى حياتهم فهم لا يقدمون ابحاثا علمية فى الاقتصاد والاجتماع وما اليهما ، بل هم يرسمون صورا من شأنها ان تنبه الغافل وتثير الساكن

وهذا الكتاب الذى أقدمه للقراء اليوم يحمل نماذج فريدة من أسلوب الادباء فى الدعوة الى الاصلاح ، اذ أقدم فيه خلاصات لكتب هى من أروع ماعرفته آداب العالم فى هذا السبيل

فهذا ((مور)) فى كتابه «يوتوبيا» يرحل بك رحلة الى ارض خلقها خياله خلقا ، ليعرض عليك هناك شعبا عرف كيف يعيش سعيدا ، فلا حروب تفتك بأبنائه ، ولا ملكية تشعل فى النفوس نيران الجشع ، ولا جمود يحول بينهم دون أصلاح انفسهم ، ولا استبداد عند الحاكمين ، ولا ارهاق للعمال ، ولا امتياز لطبقات الناس بعضهم على بعض ، ولا مرض يضعضع الابدان

وهذا ((صموئيل بتلر)) فى كتابه «ارون» يرحل بك رحلة أخرى الى أرض خيالية أخرى ، ليعرض عليك هناك شعبا آخر عرف أيضا كيف يعيش سعيدا صحيحا معافى .. الا أن «بتلر» فى كتابه هذا قد اصطنع أسلوب التهكم الساخر المر بنا وبمجتمعنا

الذى نعيش فيه ، الى درجة قد تخدع القارىء عن قصده الحقيقى فلا بد من العناية عند قراءته .

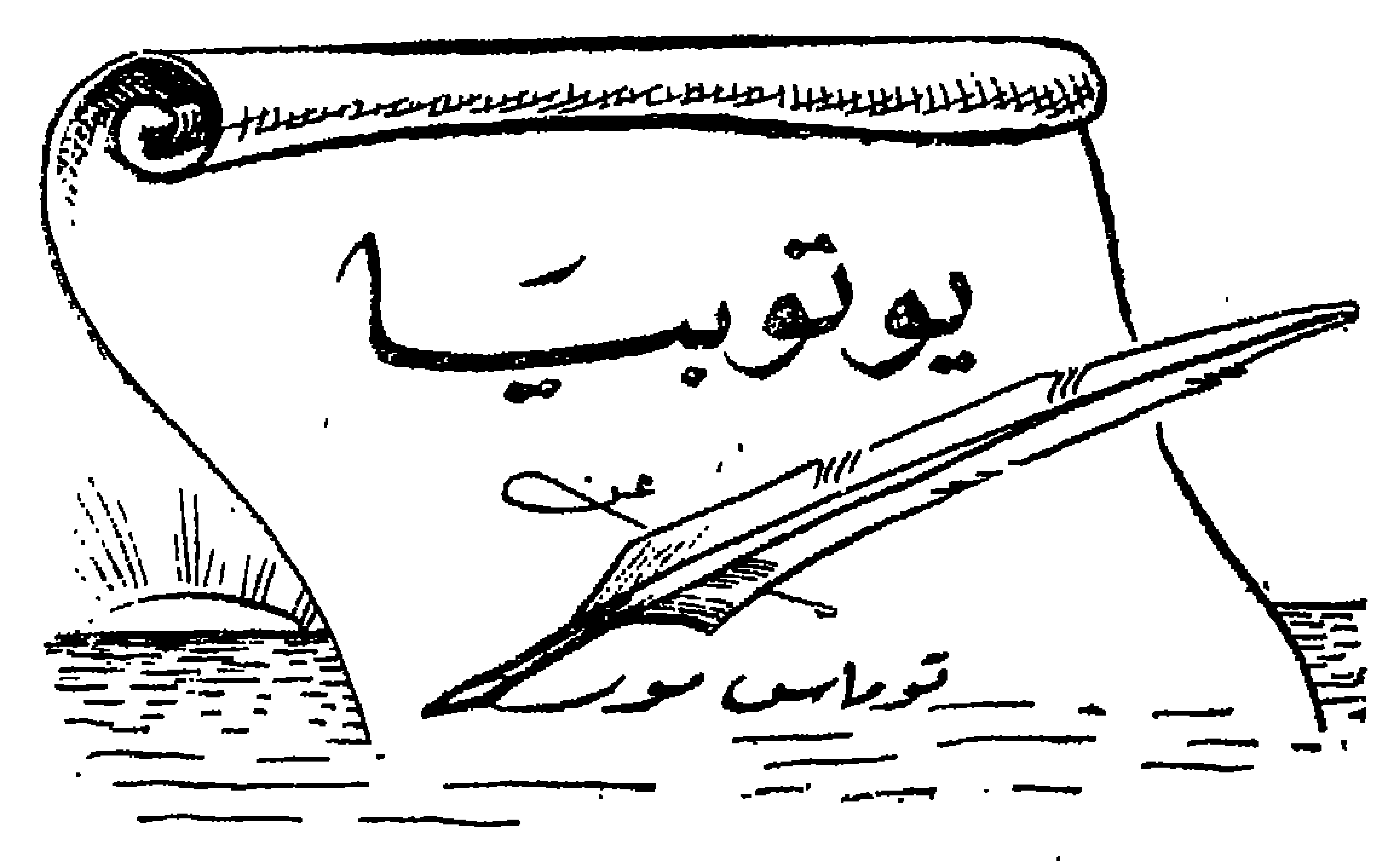
وهذا ((وليم مورس))فى كتابه ((أبناء الارض التى لا وجود لها)) يحدثك عن شعب سعيد ، ليضع أمامك - هو الاخر - نموذجا جديدا للحياة الاجتماعية كيف ينبغى أن ينتظم بناؤها حتى يعيش الناس فى بحبوحة ، ويبرأوا من هذا البلاء المحيط بهم فى المجتمع الراهن القائم ، ومما يسترعى الانتباه بصفة خاصة مهاجمته للملكية الفردية التى يطغى بها أصحابها على الضعفاء المعوزين

ثم هذا ((ه٠ج٠ ولز)) فى كتابه ((يوتوبيا حديثة)) يبشر كذلك - كزملائه - بحياة اشتراكية لا تعرف الفوارق بين الافراد ولا بين الامم : انه يريد مدنية واحدة عالمية ، ولغة واحدة وحياة تستفيد بمخترعات العلم الحديث ، ويريد للناس حرية الحب ، وتعاون العلماء فى الجامعات واشتراكية الارض ، وأن يكون لكل انسان حد أدنى من العيش .

ولو أحس القارىء بعد فراغه من قراءة هذا الكتاب بشىء من الضيق بما نحن فيه من عيش سقيم شقى بائس ، ثم أحس مع ذلك برغبة فى التغيير والاصلاح على نحو اشتراكى يعرف للافراد أقدارهم ، ويترك لهم حرياتهم ، ويحطم الفواصل البغيضة بين الناس ٠٠ لو أحس القارىء بشىء من هذا بعد فراغه من قراءة الكتاب ، تحقق لى الهدف الذى قصدت اليه .

والله ولى التوفيق

زكى نجيب محمود



نبذة عن حياة توماس مور

ولد توماس مور فى لندن فى اليوم السابع من فبراير عام ١٤٧٨ من أسرة لم تمتز بجاهها العريض ، ولكنها ملأت الافواه والاسماع بحسن الاحدوثة وكريم الخلال

كان أبوه قاضيا ، واراد أن يأخذ ابنه بدراسة القانون فارسله الى جامعة اكسفورد ، حيث ابدى من علائم الذكاء واستقامة الخلق ما أنطق الالسنة بالثناء عليه ، حتى قال أحد رعاته : « ان هـذا الصبى سيتمخض عن رجل ممتاز » . وقد كانت لابيه خطة صارمة فى تنشئة ابنه على الجد ، اذ كان من رايه أن أشد ما يحفز النفس على الفضيلة هو منع وسائل الاغراء ، ولذا لم يكن يرسل لابنه من المال الا قدرا ضئيلا حتى روى عنه انه اثناء اقامته باكسفورد لم يكن يستطيع ان يصلح حذاءه دون أن يرجع الى مشورة ابيه . ويقول « مور » مشيرا الى ذلك واثره فى تربيته الخلقية : « من اجل هذا لم انغمس فى الملاذ العابثة واللهو الضار ولم أكن أدرى معنى الترف ولا اعلم كيف انفق المال فى أوجه السـوء . وملخص حياتى المدرسية انى لم أكن احب وافكر الا فى دروسى »

تخرج « مـور » فى تلك الجامعـة ، فاشتغل محاميا ، فمحاضرا فى القانون ..

---

(١) ـ Utopia هذه الكلمة مأخوذة من مقاطع يونانية قديمـة ، ومعناها « البلد الذى لا وجـود له » ولكنها اكتسبت فى العصر الحديث معنى جديدا هو « المدينة المثلى » .

ولعل اقوى ما اثر فى مجرى حياته بعدئذشخصيتان بارزتان فى عصره شاءت له الصدفة ان يلتقى بهما فصاغا له حياته فى قالبها المعروف ،واقصد بهما « ارزم » و « كولت » وهما من اعلام الاصلاح الخالدين .. ولقد اعجب ارزم بمور اعجابا عظيما حتى قال عنه فيما قال :« متى أنجبت الطبيعة رجلا أرق وأعز وأمرح من توماس مور ؟ »

ولما بلغ « مور » السادسة والعشرين من عمره انتخب عضوا فى البرلمان الذى عقده هنرى السابع عام ١٥٠٤ ، ولكنه لم يلبث أن تعرض لسخط الملك وغضبه، وذلك حين طالب هنرى بزيادة الضرائب ليجمع قدرا من المال ينفقه على زواج ابنته من ملك اسكتلنده ، فتصدى له « مور » دون الاعضاء جميعا ، وكان من اثر حملته أن اكتفى الملك لنفقات الزواج بثلاثه عشر الفا من الجنيهات بعد ان كان يطالب بثلاثين الفا . ولكن الملك اسرها له فى نفسه ، واخذ يتربص به الدوائر ، حتى اضطره ان يتنحى عن النيابة وماإليها من الشئون العامه ، وما زال يتتبعه بنقمته ، فلم يجد « مور » بدا من الهرب ، فما ان أخذ يعد العدة لذلك حتى مات الملك هنرى سنة ١٥٠٩ .

تولى الملك هنرى الثامن فاخذ نجم « مور » فى الصعود ، فعين نائبا لعمدة لندن ، وهو منصب من اعظم مناصب الدوله اذ ذاك ، واستانف المحاماة وذاع اسمه فكثر ربحه على الرغم من كرهه للمال ... نعم ذاع اسمه بين التجار واصحاب الاعمال ذيوعا عظيما منذ عارض الملك فى زيادة الضريبة ، حتى ألح هؤلاء على هنرى الثامن ان يبعث به سفيرا الى هولنده ليفض ما كان قائما بين الدولتين من خلاف ، ولقد نشأت فكرة اليوتوبيا فى ذهنه وهو فى تلك السفارة بين البلدين

وتبين هنرى الثامن فى « توماس مور » القدرة والنبوغ ، فسعى سعيا حثيثا الى ضمه الى حاشيته ليفيد من حكمته ، غير ان « مور » كان يقابل ذلك بالرفض ، وسترى فى كتابه انه عبر على لسان بطل القصة « هتلوداى » عن مقته الشديد لتلك المناصب - ولكن هنرى مضى فى الحاحه حتى ظفر به عام ١٥١٨ عضوا فى مجلس البلاط ، بل أقرب الاعضاء الى قلب الملك ، بحيث اخذ يلازمه ملازمة لاتكاد تنفصل ، فاذا جد الجد كان راى مور نافذا حاسما واذا ضاق صدر الملك كان حديث مور هو اقرب وسائل السلوى وانجعها وما زال كذلك يعلو فى مناصب القصر حتى عينه الملك كبيرا لامنائه عام ١٥٢٩ بدل « وتزى » الذى هوى من ذروته لفشله فى التوفيق بين البابا وهنرى الثامن ، حين اراد هذا ان يستصدر أمرا بابويا بالغاء زواجه من كاترين - غير ان « مور » لم يكد يتولى منصبه ذاك



والقى مور فى برج لندن حيث حوكم ، وأدين وازهق روحـه

حتى صارح الملك بانه لا يوافق على الغا ذلك الزواج ولا يسعى اليه ، فنحاه هنرى ومضى فى سبيله دون ان يلجأ اليه

اشتد النزاع بين البابا وهنرى الثامن فلم يات عام ١٥٣١ حتى اعلن هنرى انه « حامى الكنيسة الانجليزية ورجالها وانه رئيسها الاعلى » ، فلم يسع « مور » الا أن يستقيل من منصبه • ونفذ هنرى مشيئته وتزوج من « آن بولين » ففرد البابا حرمانه من الكنيسة ولم يكن بعد ذلك بد من فصم العلاقة بين انجلترا وروما • ولما جاء عام ١٥٣٤ حتى اعد هنرى قانونا لوراثة العرش يحصر ولاية العهد فى ابنائه من زوجته الجديدة « آن بولين » وطلب الى كبار رجال الدولة أن يحلفوا يمين الاخلاص لذلك القانون • ولكنها يمين صيغت عبارتها بحيث تتضمن الاعتراف بشرعية زواج الملك من « آن » وعدم شرعية زواجه من كاترين ، كما تتضمن انكار كل يمين حلفت قبل ذلك « لسلطة اجنبية أو امير اجنبى او دولة اجنبية » • ومعنى ذلك الحنث فى الايمان السابقة التى حلفها رجال الدولة على ولائهم للبابا رئيسا للكنيسة •• وكان لابد لتوماس مور أن يحلف يمين الاخلاص التى يريدها هنرى ، فرفض مور رفضا يزداد رسوخا وثباتا كلما ازداد هنرى الحاحا ورغبة فالقى « مور » فى « برج لندن : حيث حوكم وادين وازهقت روحه فى اليوم السادس من يوليو عام ١٥٣٥

اما كتابه ((اليوتوبيا)) – أو المدينة التى لا وجود لها – فقد كتبه ليصلح الاخطاء الاجتماعية فى انجلترا فى عصره ، ولقد لقى هذا الكتاب كثيرا من النقد الشديد وكاد النقاد يجمعون على أنه ضيق الخيال مألوف الفكر ولا يقدم للقارىء شيئا جديدا ذا غناء ، فضلا عن أنه لا يواجه الحقيقة الواقعة فيما يبسط من آراء •• ولعلنا نكون اشد انصافا للكاتب حين نذكر انه قصد الى اصلاح الحياة الانجليزية وتقويمها قبل أن يقصد الى تصوير دولة مثلى كما فعل افلاطون فى جمهوريته ، ومن هنا جاء البناء ناقصا فاتهمه الناقدون مثل ((ممفليه)) و ((ولز)) بالقصور فى الخيال •

وأهم الاغراض التى ارادها مور بكتابه هذا هى :

١ – أن يشير فى تهكم الى مايسود انجلترا خاصة وأوربا عامة من مساوىء اجتماعية •

٢ – أن يرسم صورة خيالية لدولة مثلى •

٣ – أن يوضح فساد الاخلاق بأن يقارن بين الاخلاق السائدة هنا والاخلاق القائمة فى مدينة أحلامه •

ولقد كان لهذا الكتاب ذيوع عظيم بين الناس لمنزلة كاتبه ، ولان اشد نزعات ذلك العصر هو الكشف الجغرافي للقارة الجديدة ، فاشتد ميل الناس الى مطالعة ما يكتب عن البلاد البعيدة العجيبة التى كشفها الكاشفون ، سواء كانت تلك الارض المكشوفة فى مصور الواقع او من تصوير الخيال . وهل كتاب « يوتوبيا » الا رحلة خيالية الى جزيرة انشاها خيال الكاتب .

على أن الكتاب لا يخلو من لذة للقارىء الحديث ففيه حلول لمسائل هامة مما يشغل العقول فى هذا العصر ، منها

١ - مشكلة أوقات الفراغ ، فانه كلما تقدم الزمن بالصناعة واصابت من الرقى قسطا ، اتسع فراغ العمال وكان امره جديرا بالتفكير . ومن المذاهب الاجتماعية السائدة فى عصرنا هذا راى ينادى بمبدأ المساواة بين الناس جميعا فى أوقات الفراغ ، وذلك ماسبق اليه توماس مور اذ ستراه فى هذا الكتاب ينادى بوجوب تحديد ساعات العمل فلاتزيد عن ست ساعات

٢ - اساس السياسة القومية والعلاقة الدولية ، فان « مور » يلح الحاحا شديدا فى ان تهتدى الامة فى سياستها الداخلية وفى علاقتها مع سائر الامم باحكام العقل ولا تميل فى ذلك مع الهوى ، فهذا وحده كفيل بالا تتعرض الانسانية لما تتعرض له اليوم من الكوارث والآلام .

٣ - ان اشد ما يرغب فيه « مور » هو محو الذهب والفضة من الحياة الاقتصادية ، ولعل فى ذلك تشابها قويا مع ما يسرى بيننا اليوم من بعض الآراء الاقتصادية التى تنادى بعدم الاخذ بالذهب كقاعدة للنقد .

يوتوبيا

تخيل توماس مور انه حين ارسله هنرى الثامن سفيرا ايفاوضوا فى هولندا فى بعض الشئون السياسية بين الدولتين ، قابل هنالك رجلا اسمه هتلوداى ، عرف منه انه سافر فى رحلة طويلة الى جزيرة مجهولة يطلق عليها « يوتوبيا » فأعجب بما فيها من نظم اجتماعية وخلقية وسياسية ، وهو يريد ان يذيع فى الناس قصة هتلوداى كما سمعها منه ، لعلها تهديهم فى اصلاح بلادهم .

ويستهل « مور » الكتاب برسالة يزعم انها لصديق يعرف

هتلوداي صاحب القصة ، فيرجوه ان يقابل هـذا الرجل ويعرض عليه مسودة الكتاب قبل نشره خشية ان تكون فيه شيء من الخطأ ، لانه حريص على ان يخرج الناس صحيحا صادقا .. وهو يقرر لصديقه فى هذه الرسالة انه حتى بعد تحقيق الكتاب واثبات صحته ، يتردد فى نشره لانه يعلم ان الكثرة الغالبة من الناس فاسدة العقل مختلة التفكير لانها جاهلة لم تصب قسطا موفورا من العلم ، بل ان الاقلية المتعلمة نفسها تحتقر الحق وتزدريه . فماذا عساه أن يفيد بنشر الكتاب وهو يكاد يثق انه لن يصادف عند القوم الا ازورارا ؟ وما اهون ان تتناوله السنة النقد الهادمة ، فيقضي عليه ناقد بكلمة واحدة يرساها بين رنين الكئوس ، دون ان يكلف نفسه عناء القراءة فضلا عن البحث والتفكير

ثم يبدأ الكاتب بعد ذلك فى رواية القصة ، وهو يقسمها قسمين : الكتاب الاول والكتاب الثانى .

الكتاب الأول

بعث بى الملك هنرى الثامن ـ ملك انجلترا المنتصر الظافر ـ لأفض ما بينه وبين « شارل ملك كاستيل » من اسباب الخصومة والنزاع ، وكان برفقتى « تنستول » وهو اشهر من ان اعرف القارىء به ، ولو فعلت كنت كمن يبين موضع الشمس بشمعة كما يقول المثل السائر . . فقابلنا فى « بروج » رسل « الملك شارل » وكلهم ذكى ممتاز ، فان اختصصت احدهم بمدح فهو « تمسيس » الذى امتلأت اعجابا ببلاغته ودرايته بالقانون وما اوتى من المواهب النادرة والعلم الغزير

.. واجتمعنا بهؤلاء السفراء مرتين لم تسفرا عن وفاق ، فسافروا ليعرضوا الامر على اميرهم شارل فى بروكسل ، وسافرت الى انتورب

وبينا انا مقيم فى انتورب اذزارنى « بطرس جيلز » وهو من اهالى انتورب ، وقد حسنت سمعته بين قومه ، فامتدحته الالسنة لعلمه وفضله ، وعرف فيه الناس وفاء نادر الاصدقائه ، فضلا عن مرحه الجذاب وحديثه الحلو ، فكان بطرس لى فى غربتى الموحشة احسن السلوى ، وخففت صحبته من لوعتى المتحرقة نحو بلادى وزوجى وابنائى الذين كنت قد فارقتهم منذ شهور اربعة

اديت الصلاة ذات يوم فى كنيسة جميلة البناء ، وسرت فى طريقى عائدا الى الدار فابصرت بطرس يتحدث مع رجل تقدمت به السن ، بشرته ضاربة الى السمرة من لفحة الشمس وله لحية طويلة بيضاء ، وكان يتلفع بثوب فوق كتفيه ، وماكدت أراه حتى رجحت ان يكون بحارا . فلما رآنى بطرس ، اقبل نحوى مسرعا وحيانى ، فكدت اطلب اليه ان يعود الى محدثه لولا انه اسرع فانبأنى بانه كان يعتزم ان يصطحب ذلك الرجل الى دارى ، فأجبته انهما يحلان اهلا وسهلا لما يكنه صدرى من حب لبطرس ، فقال لى : انك لن تجد بين الناس من يتحدث اليك حديثا اطلى واشهى من حديث هذا الرجل ، فهو يروى لك قصصا ممتعة عن شعوب مجهولة زارها بنفسه وبلاد عجيبة رآها بعينيه ، وانا اعلم انك راغب فى مثل هذه الانباء .

اما ذلك الرجل فهو «روفائيل هيتلوداى » ، كان عالما باللغة اللاتينية ، ضليعا فى اليونانية ، وانفق ايامه فى دراسة الفلسفة ،

وقد دفعه حب الرحلة الى اصطحاب «أمريجو فسبوتش»(١) فى رحلاته الثلاث الاخيرة ،ولكنه لم يعد مع امريجو فى ثالثتها ،بل آثر البقاء فى ارض « جيلايك » مع اربعة وعشرين رجلا سواه تركهم أمريجو هنالك .. آثر روفائيل البقاء فى تلك البلاد ليضرب فى أنحائها ويجوس خلالها لانه يحب اخطار السفر اكثر مما يحب السلامة والعافية ، ولم يكن يعبأ ان يدركه الموت فى احدى رحلاته قائلا : أن من لا قبر له فالسماء غطاؤه ، والطريق الى الجنة بعدها واحد اينما صعدت اليها . . . فلما غادره امريجو ، اخذ روفائيل ينتقل من بلد الى بلد مع خمسة من اهل « جيلايك » ثم انتهى اخر امره الى بلد رأى به مركبا راسيا من مراكب وطنه ، فعاد على ظهرها

انبأنى بطرس بهذا كله عن روفائيل ، فشكرته على أن أتاح لى فرصة التحدث الى هذا الرجل ،والتفت الى روفائيل وحييته فرد التحية ، واخذنا فى حديث اولى كهذا الذى يبدأ به الناس عادة صداقة جديدة ، ودعوته الى دارى وهنالك جلست واياه على مصطبة فى حديقتى غطاها الحشيش الاخضر ، ثم بدأنا الحديث .

حدثنا انه حين تخلف فى ارض « جيلايك» بعد ان غادره «أمريجو فسبوتش » لم يجد عسرا في مخالطة الناس ومعاشرتهم لانه استطاع ان يكسب قلوبهم بطلاوة حديثه ، فعاش بينهم فى الفة ومحبة ، واحبه رجل ذو منزلة عالية ـ نسيت اسمه وبلده ـ فأمر ان تكون نفقات عيشه وسائر رفقائه من حسابه ، وزوده برجل يهديه الى الطريق الصحيح اثناء رحلته ، ويقدمه الى امراء البلدان التى يمرون بها ليهيء له حسن القبول

---

(١) « أمريجو » هو مكتشف امريكا بعد كولمبس ، وباسمه سميت القارة الجديدة

وبعد رحلة استغرقت اياما جاء الى مجموعة من المدن تسكنها شعوب غنية سعيدة محكومة بقوانين لا يجد النقد اليها سبيلا . . وقد عبر فى طريقه الى تلك المدن صحراوات فسيحة مترامية الاطراف تكاد ارضها تلتهب بحرارة الشمس التى لا تحول ولا تزول ، فكل ما فيها مخيف مفزع كريه بغيض ، وكل ما تقع عليه العين بها ناب ممقوت ، ولا يسكنها* سوى صنوف الحيوان المفترس والزواحف الفاتكة ، واقوام من الاناسى لا يقلون وحشية عن الحيوان والافاعى . . فاذا ما عبرت ذلك الاقليم المخيف ، اخذ كل شىء يتبدل امام ناظريك ويتغير ، فالهواء بايل عليل معتدل ، والارض يكسوها النخيل الاخضر ، والحيوان طيع ذلول ، والناس يقيمون فى المدائن ويحيون حياة نشيطة سعيدة .

ولست أستطيع أن انقل حديث روفائيل بأكمله ، ولكنى سأروى عنه حديثه عن تلك الشعوب التى الفاها تعيش فى نظام محكم دقيق ، وتحكمهم مجموعة من القوانين الصالحة القويمة ، لانى اكثرت من السؤال فى هذا الموضوع لكى ازداد دراية وعلما بتلك الشعوب وحياتها ، فما اندر ان تصادف شعبا تسوده القوانين الصالحة ! ولقد علمت من حديث الرجل عن تلك البلاد العجيبة شيئا كثيرا مما يصح أن نقتبسه فى بلادنا لنمحو شيئا من اخطائنا

وها انذا سأقص عليك ما رواه الرجل عن اخلاق اهل «يوتوبيا» وعاداتهم وقوانينهم

أخذ روفائيل يتحدث عن قوانين « يوتوبيا » ويقارن بينها وبين قوانين بلادنا ، فأبدى مهارة عجيبة ودراية واسعة بنظم الحكم ، فسأله بطرس : انى ليدهشنى يا روفائيل ان تكون على هذا القدر

من العام ولاتلتحق بحاشـــية الملك (١) ، انى لعلى يقين انك تكون فى بلاط الامير درة نادرة ، وتعلو فى تقدير الامير لما يجد فى حديثك عن البلاد العجيبة التى رأيتهـــا من لــذة ومتـــاع ، ولمـــا يفيـــد من هـــداية بنصحك الخـالص السديد فى ادارة الحكومة ، بما تضـــع امامعينيه من أمثلة صالحـــة . .

فأجاب روفائيل بانه لا يحب أن يستعبده ملك كائنا من كان .

فاعترض بطرس قائلا ان الامرلا استعباد فيه ، بل ستصيب منصبا رفيعا ومالا كثيرا وجاهاعريضا تنفع به نفسك وأصدقاءك

فأجاب روفائيل : وماذااصـــنع بالثروة وانا اســتمتع اليـــوم بحرية اين منها الملوك والامراء ، أفعل ما أشـــاء متى اشاء . .

فقلت له : اى صديقى روفائيل! انى لا تبين فى وضـــوح انك لا ترغب فى مال ولا سلطان ، وانى لاحترم رجلا هذا مذهبـــه أكثر مما أقدر أولئك الذين يتسابقون الى القوة والجاه . ولكنى أرى مع ذلك انك تستطيع ان تخدم الوطن وانت فى منصب رفيع الى جانب الامير لتضع فى رأســـه الافكار النبيلة والاراء الفاضـــلة وما أصلحك لمثل ذالك .

فأجابنى روفائيل : يا سيدى مور : انك مخدوع خدعتـــين ، مخدوع فى قدرتى ومخدوع فى صفات الملوك وأخلاقهم . أما أنا فليس لى ما شاء فضلك ان يعـــزوه الى . وأما الملوك فمعظم عملهم خاص بالحروب ـ وهـــذا شىء أمقته واجهله فى ان معا ـ فهم بالحروب أكثر شغلا منهم بالسلم وصالح الشعب ، وهم يبذلون جهدا فى محاولة توســيع ملكهم أكثر جدا مما ينفقونه فى محاولة حكم بلادهم حكما صـــالحا . . وأعجب من هذا يا صديقى أن

(١) يلاحظ ان « مور » يقصد نفسه ويريد ان يشرح الاسباب التى حملتـه على رفض المنصب الذى عرض عليه فى بلاط هنرى الثامن

الناس انفسهم لا يأبهون للاصلاح فى كثير أو قليل ، ولو بسطت لهم رأيا ناضجا فى اصلاح شئونهم سلقوك بألسن النقد الحداد .

فسألته : ترى هل مررت ببلدنا فيما مررت ؟ فأجاب أنه فعل ، ومكث به اربعه اشهر أو خمسه عقب الثورة التى قام بها أهل المناطق الغربية فى وجه الملك فقمعت بسفك الدماء ، وقابل هناك بعض كبار رجال الدولة وتحدث اليهم كثيرا .

وذكر روفائيل أنه عجب أشد العجب حين مر بأرض انجلترا فوجد ان اللص جزاؤه الاعدام(١) وعلق على ذلك قائلا ان ذلك جاوز حد العدل ، فهو عقاب لا يمنع السرقه رغم قسوته . فما من عقوبة تنجح فى منع السرقة مادام السارقون لا يجدون أمامهم فرصة العمل الشريف سانحة ، وما أشبه الحاكم الذى يقتل السارق دون أن يهيىء له العمل أولا بالمدرس الاحمق الذى يضرب تلميذه ولا يعلمه شيئا .

قال روفائيل أنه تحدث فى ذلك الى رئيس أساقفة كانتربرى والى كبير من كبراء الدولة، فأجابه ذو المنصب الرفيع بأن القانون الذى يعترض عليه عادل لاعوج فيه ، وان هؤلاء اللصوص فى مكنتهم أن يمتهنوا الصناعات اليدويه أو يشتغلوا بفلاحة الارض لولا ان الشر ركب فى طبعهم ، فقال له روفائيل ان هذا الجواب لا يقنع ولا يسلم من النقد . فدعك من ذوى العاهات الذين أعجزتهم الحرب عن مزاولة صناعاتهم والذين تقدمت بهم السن حتى لم يعد فى مقدورهم أن يتخذوا لانفسهم مهنة اخرى . دعك من هؤلاء وفكر فى الامور التى تجرى تحت بصرك كل يوم ، فانظر الى هؤلاء السادة المالكين الذين لا يكفيهم أن يعيشوا بأنفسهم عيش البطالة بما يفرضونه على

---

(١) ينقد مور القانون الانجليزى اذ ذاك

مستـــــتاجرى أرضهم من عالى الاجور ، فتراهم يحيطون انفسهم بحاشـيـة من المتعطلين الـذين لا يتعلمون صنعة يكسـبون بهـا عيشهم ، حتى اذا ماماتسيدهم او أصابهم المـرض شردوا لان السادة يؤثرون الانفـــاق على متعطل على الانفاق فى سـبيل المرضى . فاى سبيل امام هؤلاء غير السرقة ؟ فلا هم بصالحين ان يكونوا فى حاشـيات السادة الاغنياء ، ولا هم بقـادرين ان يفلحوا الارض ويأكلوا من ثمرها لانهم نشأوا نشأة ناعمة لاتعرف هذه الخشونة الغليظة فى العمل .. ثم انظر يا صـــاحبى الى الاشراف ورجال الـــدين كيف يبلغ بهم الجشع فى كسب المال ان يحولوا المزارع الى مراع لان الرعى ادر للـربح ، فيشردون بذلك ألوف المزارعين رجالا ونساء وشيوخا واطفالا ، فيضربون فى الارض يمدون ايديهم طلبـــا لاحسان المحســنين ، ولاتكتفى الحكومة بهذا فتطوح بهـــم فى غيابات السجون لانهم يســالون الصدقة ولايعملون ، .. الا ان جشع الاقلية الغنية قد جـــر الخـراب على البـلاد : فتبطل وتسول وشقاء وبؤس فى ناحية، وترف وعربدة وخمر ومقـــامرة وعهر فى ناحية اخرى !!

لن يكون قتل اللصوص عادلا الا اذا هيأنا لهم عملا بأن نخلص البلاد من بلاء الاغنياء المخيف ، فلا نسمح لهم بطرد المزارعـين من أراضيهم حتى نفسح فى ميدان العمل الشريف أمام من عضهم الفقر فاضطروا الى التسول أو السرقة

فسأل الرئيس الدينى الذى كان يستمع الىّ حديثه : ان كنت ياسيدى روفائيل لا ترى قتل اللص عادلا ، فمـــاذا تقتـرح للسرقه من عقاب ؟ .. فأجاب روفائيل : ياسيدى لست اظن من الحـق والعـدل ان نزهق النفوس البشرية من اجل ازهاق المال . ورأيى أن خيرات الارض كلها لا تساوى حياة انســـان

واحد . ولقد نهانا الله عن قتل الانسان ، فكيف نتعجل فنزهق حياة رجل لانه سرق حفنة من المال ؟ ان الخطأ فى التفكير بين واضح حين نقول ان اللص والقاتل يجب أن تنزل بهما عقوبة واحدة . أليس هذا يشجع اللص على ان يقتل صاحب المال الذى يريد أن يسرقه مادام قتله لا يزيد من جريمته؟ بل يفسح امامه الامل فى النجاة لانه سيخرس اللسان الذى قد يفضح جريمته ؟ اننا يا سيدى نحاول ان نتعقب اللصوص لنتناولهم بالتأديب فنخلق بذلك القاتلين

لم يكد يصل روفائيل من روايته الى هذا الحد حتى قال له مور : ان ذلك ليزيدنى الحاحا فى ان تلتحق ببلاط الامير لتفيد امتك بسديد رأيك . فاذا كان أفلاطون يعتقد الارجاء فى الاصلاح الا اذا كان الفلاسفة حكاما ، أو اذا درس الحكام الفلسفة ، فما ابعد الامم عن سعادتها ان اجفل الفلاسفة عن تسديد خطى الملوك بنصحهم الثمين .

فأجاب روفائيل : لست اظن ياسيدى مور ان الفلاسفة ستبلغ بهم القسوة وغلظة القلب هذا الحد البعيد ، بل ان الفلاسفة ليسرهم أن يقدموا لامتهم هذا الصنيع ، بل هم قدموه فعلا بما نشروا من الكتب لو أن اذان الملوك والامراء تصيخ للنصح الجميل . ان افلاطون ياصاحبى قد تنبأ بأن الملوك اذا لم يفسحوا صدورهم لدراسة الفلسفة فان تقبل اذهانهم على نصائح الفلاسفة ، لانهم سيكونون قد تأثروا بالآراء الفاسدة . وذلك مابرهن على صحته افلاطون بنفسه حين ذهب يعلم الملك ديونيس . . اننى اذا قدمت للملك نصائحى وحاولت ان اقتلع من رأسه اسباب الشر والسوء فاما ان يكون جزائى الطرد او السخرية

افرض مثلا ان ملك فرنسا طلب المشورة من رجاله فيما يتصل بحربه مع ايطاليا ، فأشار عليه مشيروه بان يحارب ليوسع من املاكه ، ثم تقدمت انا اليه بالنصح ألا يدخل الحرب لان فرنسا وحدها اكبر جدا من ان يملكها ويحسن حكمها ملك واحد ، ثم اخذت اشرح له طرائق اهل « يوتوبيا » في الحكم ليحذو حذوها ، ألا اكون بذلك موضعا للسخرية والضحك ؟

فقد حدث مرة ان اهل اليوتوبيا اشتبكوا في قتال مع بلد آخر ، وكتب لهم النصر وظفروا بذلك البلد لملكهم ، ولكنهم تبينوا فيما بعد ان الاحتفاظ بهذا البلد الجديد في حوزتهم يكلفهم حربا متصلة لاتنقطع ، يقمعون ثورته مرة ويردون عنه المهاجمين مرة اخرى ، فلم يترددوا في التنازل عنه ، اذا رأوا ان من الخير لهم أن ينصرف ملكهم الى حكم بلدهم وكفى ليستمتعوا جميعا بالسعادة وراحة البال

هبني ياصديقي قلت لملك فرنسا نصيحة كهذه ، واشرت عليه بان هذه الاهبة للحرب ستحدث القلاقل في امم كثيرة وسينفق في سبيلها المال ويهلك الرجال ، وان ذلك الاضطراب كله سينتهي بلا شيء ولن يعود على احد بطائل ، وانه خير له ان يقنع بفرنسا ويكفيه فخرا ان يوفر لشعبها السعادة والثروة والهدوء ، فلا ينبغي ان يتدخل في شئون غيره من الامم لان ما يملكه فوق مايكفيه .. اقول لو اني تقدمت بمثل هذا النصح الى ملك فرنسا ، فكيف تراه يقع من نفسه ياسيدي مور ؟

فقلت : ما احسبه شاكرا لك هذا النصح

فقال : هب أميرا اخذ يفكر ويستشير ذوي الرأي في ملء خزائنه بالمال ، فينصحه مشير أن يرفع قيمة النقد اذا كان

عليه ان يدفع ما لا . وان يخفض قيمة النقد اذا كان على الناس ان يدفعوا له مالا ، وبهذا يستطيع الملك ان يدفع قدرا ضئيلا من المال فيسدد به دينا عظيما ،وان ينال قدرا عظيما من المال حين يكون من حقه قليل منه.. او اذا نصح له ناصح بأن يزعم باطلا امام الشعب انه يعتزم محاربة الاعداء ، ويأخذ فى جمع الضرائب تبعا لذلك ، حتى اذا ماحصل مبلغا جسيما ، اعلن فى شعبه انه آثر الصلح لانه يحب شعبه ولا يرضى له سفك الدماء .. او اذا اشار مستشار بأن يفرض الملك غرامات مالية على من يعتدى على هذا القانون او ذاك من القوانين التى تقادم عهدها حتى نسيها الناس ،وبذلك يجمع مالا طائلا من ظلم ظاهره العدل الشريف ...

أقول لو اراد الملك ان يجمع لنفسه المال فأشار عليه المشيرون ان يلجأ الى تلك الوسائل وامثالها ، بحجة ان بقاء الثروة فى ايدى الشعب يجعله صعب القياد نزاعا للثورة ، فمن الخير ان تسلب امواله على هذا النحو حتى يخرس الفقر السنة الثائرين ، فماذا عساى ان اقول للملك بعد هذا ؟ أ أقول ان هذه النصائح لاتشرف الملك الذى تتوقف سلامته ومكانته على ثروة شعبه اكثر مما تتوقفان على ثروته الشخصية ؟ أ اقول ان الشعب يختار الملك ليحكم فى صالح الشعب نفسه لا فى صالح الملك ، وانه يختاره ملكا لينفق عمره فى تهيئة العيش الرغيد الهادىء للجميع دون ان يعرض الناس للضرر والخطر ولذا وجب على الملك ان يفكر فى ثروة شعبه أكثر مما يفكر فى ثروته هو ، كما ان وظيفة الراعى — من حيث هو راع — إن يطعم الغنم قبل ان يطعم نفسه ؟

من ذا تحدثه نفسه بالثورة الا الساخط على حالته الراهنة؟

من ذا يسعى الى تعكير الصفوالا من لايملك شيئا يخشى أن يفقده ؟ .. ان الشعب اذا ازدرى مليكه ولم يعد ينظر اليه نظرة الاحترام والتقدير بحيث يعجز الملك عن حفظ الامن الا بالسبل الباطله والضرائب الظالمة فخير له ان يغادر عرش الملك ، لانه ان أصر على البقاء فسيكون ملكا بغير جلال الملك .. ان الملك لايشرفه ان يبسط سلطانه على شعب من المتسولين بل فخاره ان يحكم قوما اغنياء . وهذا ماقاله أحد الملوك القدامى : خير لى ان احكم شعبا غنيا من ان اكون غنيا .. ليست وظيفة الحاكم ان يعيش فى بذخ وبحبوحة فى شعب يتضور جوعا ويئن من الالم ، ولكنها وظيفة السجان

ان الملك الذى لايقوى على اصلاح شعبه الا اذا سلبهم مالهم يكون كالطبيب العاجز الذى لايستطيع ان يعالج علة فى مريضه الا اذا سبب له علة أخرى . ومن هذا شأنه من الملوك يجب ان يسلم بأن صناعة الحكم ليست فى مقدوره ... اما الملك الصالح فهو من احتقر اللذائذ الدنيئة وتخلص من كبريائه وحاول الا يوقع الاذى بأحد من شعبه . وهو الذى يمنع اسباب الفوضى واعتداء الافراد بعضهم على بعض بما يضع لهم من دقيق النظام ، لا بان يزيد اسباب الاعتداء ثم ينزل بالمعتدين العقاب ... لوتقدمت الى الملك بهذه النصائح، الا يشيح عنى بوجهه ولايستقبل حديثى الا بأذن صماء ؟

فأجبته ان نعم ، ثم اضفت انه ماينبغى ان يصارح الملوك بكل قول صحيح ، فلكل مقام مقال . ولكن ان كان عسيرا على الحكيم ان يقتلع من رءوس الملوك اخطاءها ، فليس ذلك بمبرر له ان يهمل صالح الدولة . افتترك السفينة فى العاصفة الهوجاء لانك لاتستطيع ان تسيطر على الريح ؟ وقلت له ان واجبك ياصاحبى

الا تفجأ الملك بكلام شاذ غريب لم تألفه مسامعه ، بل شأنك ان تعالج الامر فى مهارة وكياسة حتى تبلغ غايتك ، ومالا تستطيع ان تصلحه كل الاصلاح فقوم عوجه ماوجدت الى ذلك سبيلا حتى لايكون سيئا كل السوء ، لان الاشياء لاتطيب ولا تجود الى أقصى غايات الطيب والجودة الا ان طاب الناس أجمعون ، وذلك مالن يكون الا بعد حين طويل من الدهر

فاعترضنى روفائيل قائلا : اذن فلن اغير شيئا مما هو كائن ، وما دمت اعيش بين قوم مجانين فلأكن مجنونا مثلهم . والا فماذا انا صانع ؟ اقول الحق فأصادف آذانا صماء ، ام اقول الباطل واذا عليم ببطلانه ؟ لا ، لن اقول باطلا عن عمد ماحييت . واما الحق فسينبو عن اسماعهم لانهم لم يألفوه ، فلو صارحت الناس بما قاله افلاطون فى تنظيم الدولة او بما يسود يوتوبيا من قوانين لهالهم ان يعلموا ان افلاطون واهل يوتوبيا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ولا يقرون هذه الملكية الفردية التى تقوم بيننا

انك لتنصحني ياسيدى مور أن أراوغ فى بسط آرائى للامير الحاكم فلا اواجهه بالحقيقة عارية مرة ، وذلك يذكرنى بشىء وهو ان آراء المسيح على حقيقتها بعيدة كل البعد عن افهام الناس ، بل هى اغرب عليهم من آراء اهل يوتوبيا ، فلجأ القساوسة الى سياسة عجيبة ، وهى ان يحوروا ويشذبوا من آراء المسيح حتى تقرب من افكار الناس فلا تبدو لهم عجبا . اتريدنى على انتهاج هذا السبيل فى اعلان آرائى الجديدة ؟ انى ان فعلت ما افاد الناس شيئا ، لانى امالئهم فى غيهم يعمهون ، او دافع بهم الى ضلال فوق ضلالهم

اذا رضيت ان اكون ناصحا للملك فاما ان اقول رأيا يخالف

رأيه ، وهذا يساوى الا اقول شيئا لانه لن يستمع الى قولى ، واما ان اقول مايتفق مع رأيه وهذا يشجعه على ماهو ماض فيه من جنون

خذها كلمة ياسيدي مور ، مادامت الملكية الفردية قائمة فلا رجاء فى اصلاح ، الا اذا كان رأيك ان العدل يستقيم ميزانه اذا وضعت الاشياء فى ايدى الاشرار أو اذا قسمت الثروة بين نفر قليل من الناس وعاش الباقون فى فاقة وشقاء

ان اهل يوتوبيا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ، ولذا ترى كل انسان هنالك مسدود الحاجات ، بل تغمره وفرة من الانتاج .. فأنا اوافق افلاطون فيما ذهب اليه من اشتراكية ، ولست اعجب حين اعلم برفضه ان يسن الشرائع لقوم لايستمعون الى نصحه فى قسمة الثروة بالتساوى بين الجميع . فقد ادرك ذلك الفيلسوف العظيم الا سبيل الى سعادة المجتمع الا ان تسود المساواة بين الافراد فى كل شىء ، وهذه المساواة المطلقة مستحيلة مابقيت الملكية الخاصة قائمة . فاذا طفق كل فرد يسعى جهده فى تحصيل مايمكن تحصيله من الثروة ، كانت النتيجة المحتومة لذلك ان تنحصر الثروة فى ايدى طائفة قليلة وان يظل الباقون — وهم الكثرة الغالبة — فى فقر وحاجة. مع ان هذه الكثرة فى معظم الحالات احق بالتمتع بالمال من أولئك الاغنياء ، لان الاغنياء كثيرا مايستولى عليهم الجشع فى جمع المال دون ان يؤدوا عملا يفيد امتهم ، اما الفقراء فهم الذين يعيشون عيشة البساطة ويفيدون امتهم بما يؤدونه كل يوم من الاعمال اكثر مما يفيدون انفسهم .. فيقينى الذى لا اشك فيه هو اننا لن نبلغ الكمال فى توزيع الثروة الا اذا حطمنا قوائم الملكية الخاصة

ما دامت الملكية الفردية قائمة فسيبقى الفقر بعبئه الثقيل .
نعم قد تخف وطأة شره ببعض الشرائع الحكيمة ، كأن يضرب حد اقصى لما يجوز ان يملكه الفرد او لما يجوز ان يحوزه الملك من الارض والسلطان ، وان يحرم توزيع المناصب بالرشوة والهدايا لان ذلك يجعل مناصب الدولة في مقدور الاغنياء وحدهم مع ان الحكماء من ذوي العقول الراجحة هم احق بها ، اقول انه قد تخف وطأة الشر بمثل هذه الشرائع ولكن البلاء لايزول ولا يقتلع من جذوره الا ان اتينا على الملكية الخاصة فمحوناها محوا من الوجود

فاعترضت روفائيل قائلا :ولكن اشتراكية الاشياء بين الناس لاتحفز احدا الى الجد في العمل ، وبذلك يكتب عليهم جميعا ان يعيشوا عيش الفاقة اذ ينضب معين الانتاج بقلة العمل

فأجابني : لست اعجب ان يكون هذا رأيك ، فأنت تتصور الموضوع تصورا باطلا . فلو رأيت معي اهل يوتوبيا وشهدت حياتهم وما يسودها من قوانين - فقد عشت بين ظهرانيهم خمسة أعوام وكنت اوثر البقاء لولا انني طمعت ان اعود لانشر بين الناس هنا انباء ذلك العالم المجهول - اقول لو كنت معي ياصديقي مور لايقنت ان ذلك هو نظام الحياة الكامل والا نظام سواه

ومن حسناتهم انهم اذا علموا شيئا جديدا مفيدا ممن تطوح به الاقدار كما طوحت بي الى بلادهم ، فانهم لايترددون لحظة في الاخذ به وتطبيقه مادام صالحا نافعا . أما نحن فوا أسفاه ! نسمع بنظام احسن من نظامنا فلا نأبه له . واهل

ذلك الفارق هو وحده الذي يجعل اهل يوتوبيا — في رأيي — اصلح منا للحياة والبقاء ، وان لم نكن اقل منهم في الثروة والذكاء

فقلت لروفائيل : اذا كان الامر كذلك فاتوسل اليك ان تصف لي تلك البلاد ، ولا توجز الوصف بل قل في اطناب لاعلم كثيرا عن ارضهم وانهارهم ومدنهم واخلاقهم وقوانينهم ونظمهم وكل ما تحب ان تنقل عنهم من جوانب الحياة وما احسبك باخلا علينا بهذا .

فقال : بل ليس أحب الي من ذلك ، فالامر في ذهني بين واضح ولكنه يقتضي بعض اوقات الفراغ لروايته .

قلت : لنتناول الان طعام غدائنا ولنرجيء الحديث الى وقت اخر .

وكان أن فرغنا من الطعام وعدنا الى الحديقة حيث كنا ، فجلسنا على المصطبة المعشوشبة ، وآثرت الا يدنو منا أحد من الخدم حتى لا يضطرب حبل الحديث ، وجلسنا ثلاثتنا : أنا وصديقي بطرس وروفائيل . واصمت روفائيل قليلا ، وارهفنا له الاذان ، فشرع يقول : . .

الكتاب الثاني

يوتوبيا جزيرة يبلغ عرضها في وسطها — وهو اعرض اجزائها — مائتي ميل : ثم ينثني طرفاها بحيث تصبح الجزيرة في شكل هلال وليد ، وينفذ البحر بين طرفيه اللذين يبعد احدهما عن الاخر احد عشر ميلا اوما يقرب من ذلك

وتنهض في وسط الجزيرة صخرة عالية أقيم عليها برج حصين تحرسه حامية من الرجال وقد نتأت صخور تحت سطح

البحر بقرب الشاطىء بحيث يستحيل على القادم الغريب أن يسلك بسفينته سبيلا سويا الا أن يهديه دليل من أهالى الجزيرة الى الميناء الذى يقصد اليه وهذه الصخور الناتئة كفيلة وحدها ان تسحق الاسطول المهاجم كائنا ماكان .. هذا فى البحر ، واما فى البر فقد شيد حزمنيع على حافة الجزيرة ، أقامت بعضه الطبيعة ، وتممه الانسان ، فيكفى عدد قليل من الجند لحماية الجزيرة كلها من هجمة الاعداء

وفى جزيرة يوتوبيا اربع وخمسون مدينة كبيرة جميلة تتكلم كلها بلسان واحد ويلبس الاهلون جميعا طرازا واحدا من اللباس ، ولهم جميعا خلق واحد، وتسود المدائن كلها نظم واحدة وقوانين بعينها .. ولا تبعد مدينة عن مدينة اكثر من رحلة يوم واحد مشيا على الاقدام .وعلى كل مدينة ان تختار من بين ابنائها شيوخا ثلاثة فيجتمع شيوخ الجزيرة كلها معا للتشاور فى شئون الدولة

والمدينة تنقسم الى اسر لاينبغى أن تقل الواحدة منها عن اربعين شخصا يخضعون جميعا للرجل وزوجته اللذين لابد ان يكونا عاقلين حكيمين تقدمت بهما السن ، وعلى كل ثلاثين أسرة يقوم رئيس أو حاكم . وتشترط الدولة على كل اسرة ان ترسل كل عام عشرين من ابنائها الى مزارع الريف حيث يقضون الحول فى فلاحة الارض ، حتى اذا ما مهر الجميع فى الزراعة كان لكل واحد الحق فى البقاء فى الريف أن أراد

أما واجب المزارعين فهو حرث الارض وزرعها وتربية الماشية وقطع الاخشاب وارسالها الى المدينة ، وهم يربون قليلا من الجياد الحوشية لتدريب الشبان على الفروسية وركوب الخيل

وهم لايزرعون الا قمحا لخبزهم ، وأما شرابهم فنبيذ العنب أو عصير التفاح والكمثرى او الماء القراح . ولابدان يزرعوا مايزيد عن حاجة المدائن جميعا ليصدروا القدر الزائد الى الامم المجاورة

والمدن كلها متشابهة بحيث يكفيك ان تعرف واحدة منها لتعرفها كلها ، وسأصف لكم احداها وتسمى « امورت » لانها مقر مجلس الشورى وتعترف لها بقية المدائن بالرئاسة

تقع « امورت » فى حضن تل وطىء ويتخللها نهر تصب فيه نهيرات كثيرة ، واهلها يحافظون على منابع هذه الانهار فيقيمون حولها الاسوار حتى لايمنعها عنهم عدو او يصيبها بأذى . وقد احاطوا المدينة بسور من الصخر عال كثيف ، واحتفروا حولها خندقا عميقا تحفه الاشجار والاشواك

واما المنازل فقد تلاصقت فى فخامة وجمال ، تمتد بينها طرق لايقل عرض الواحد منها عن عشرين قدما ، وزرعت الحدائق الغناء خلف الدور ، ولكل منزل بابان ، احدهما يطل على الطريق والاخر يفتح فى الحديقة الخلفية وهى ابواب يسيرة الفتح والاغلاق ولا يجوز لساكن الدار ان يغلقها بالاقفال والدرابيس حتى يتيسر لمن شاء ان يمر خلالها . ولم يغلق صاحب الدار ابوابه وليس فى الدار مايملكه ملكا شخصيا ؟ هذا الى ان اهل المدينة يتبادلون الدور حينا بعد حين .. وتدب المنافسة بين سكان الطرق المختلفة ؛ فكل فريق يريد ان يبلغ شارعه حدا أقصى من الجمال ، ولذا فهم لايدخرون وسعا فى تجميل الطرق وتنسيقها حتى تبدو بهجة للناظرين . ولعل أجمل مايسترعى النظر فى المدينة ، حدائقها التى يراعى فى زرعها الجمال والاثمار فى آن معا ، واظن ان مؤسس المدينة كان قد عنى بالحدائق أول ماعنى

رؤساء المدينة

تختار كل ثلاثين اسرة ممثلالها ، ثم يختار كل ثلاثين ممثلا من هؤلاء رئيسا . على ان يشترك الممثلون جميعا فى انتخاب امير البلاد الذى يظل فى منصب الحكم مابقى حيا ، الا اذا ارتكب من الخيانة مايستحق العزل من اجله

وان نشئت خصومة بين الافراد نظر فى امرها قاضيان من هؤلاء الرؤساء . اما مايتعلق بشئون الدولة كلها فلا بد ان يعرض على مجلس الشورى بأجمعه على الا ينفذ منه شيء الابعد مناقشته فى المجلس ثلاثة ايام . ومن يناقش فى امور الدولة خارج مجلس الشورى يحكم عليه بالاعدام ، وهم انما أرادوا بهذا القانون الا يتآمر الاعضاء خارج المجلس مع الامير على انتهاج خطة يدبرونها

ولايبيح قانون مجلس الشورى ان يناقش موضوع الا اذا سبق عرضه فى جلسة سابقة ، ولايجوز البتة ان يبدأ عضو من فوره فى بحث موضوع لم يسبق عرضه فى جلسة سابقة ليتقوا بذلك شر ان يقول العضو كل سانحة تمر بذهنه ويأخذ فى الدفاع عنها بغير روية ولا تفكير

العلوم والصناعات والاعمال

الزراعة صناعة محتومة على الجميع رجالا كانوا أو نساء ، فهم يمارسونها منذ الصغر ، فيلقنون مبادئها العلمية فى المدرسة ويزاولون شئونها العملية فى مزرعة مجاورة لمكان اقامتهم

ثم لكل فرد فى الدولة ان يختار الى جانب الزراعة صناعة اخرى

يتعلمها من وجهيها العلمي والعملي كصناعة الاقمشة او البناء او الحدادة او النجارة .. ويفرض قانون يوتوبيا ان يلبس الرجال جميعا لبسا لايختلف فيه رجل عن رجل ، وان يكون للنساء المتزوجات رداء واحد كذلك ، ولغير المتزوجات منهن رداء آخر ، وقد روعى فى الحلة المقررة ان تكون جميلة سهلة لاتعوق حركة الجسم ، وان تصلح الصيف والشتاء معا ، وعلى كل اسرة بحكم القانون أن تنسج ملابسها بنفسها

اقول ان كل فرد فى يوتوبيا لابد ان يتعلم صنعة يختارها فوق الزراعة ، على ان يقوم النساء بصفة عامة بالصناعات اليسيرة نوعا كالغزل والنسج ، وان يقوم الرجال بالشاق من الاعمال كالبناء وما اليه .. على أن العرف السائد فى معظم الاسر ان يأخذ الطفل صناعة ابيه ؛ فان حدث ان طفلا نفر من صناعة ابيه تولت الدولة نقله الى اسرة اخرى يشتغل ربها بالصناعة التى اختارها ذلك الطفل . فالزراعة وصناعة اخرى محتومتان على كل فرد بغير استثناء ، ولكل فرد بعد ذلك ان يختار مايشاء من الصناعات فى اوقات الفراغ

فان كان واجب الدولة أن تكلف كل فرد بها بعمل يؤديه ، فواجبها كذلك الا تسمح بأن يجبر فرد على العمل من الصباح الى المساء كأنه حيوان أعجم . فلا ينبغى أن يزيد العمل كل يوم عن ست ساعات ، ثلاث منها قبل الظهر ، ثم يؤذن للعمال بساعتين للغذاء والراحة ، ثم ينجزون بقية عملهم فى الثلاث الساعات الباقية ويتناولون بعدها عشاءهم ، حتى اذا ما كانت الساعة الثامنة من المساء انصرف الجميع الى المخادع حيث ينامون ثمانى ساعات .

ومن حق الفرد ان يتصرف فى وقت فراغه كما يريد على الا يتجه فى ذلك الى الرذيلة وسوء السلوك . والدولة تنظم محاضرات

تلقى فى الصباح من كل يوم ليستمع اليها من اراد . . اما بعد العشاء فهم يخصصون ساعة اللعب والسمر ، ينفقونها فى حديقة الدار ان كان الصيف ، وفى قاعة داخل الدار ان اقبل الشتاء . ولكنهم لا يبيحون العاب النرد ومايشابهها ، ويؤثرون العابا تشبه الشطرنج .

ولقد يخيل اليك ان ست ساعات لاتكفى لينتج العاملون محصولا كافيا ، فلا يغيبن عن ذهنك ان فى الامم الاخرى شطرا عظيما جدا متعطلا لاعمل له ، فلا عمل للنساء وهن النصف من كل امة ، وحتى لو عمل النساء فى بلد وجدتهن يملأن فى ذلك مكان الرجال . ثم اضف الى ذلك رجال الدين والسادة الاغنياء الذين تسمونهم اشرافا ونبلاء ، فضلا عمن يخدمون هؤلاء الاشراف ، زد على هؤلاء واولئك الوف المتسولين الذين يسترون تعطلهم بستار المرض .. فاحذف هذا العدد الجسيم من أية أمة شئت وحدثنى كم يبقى بعد من الرجال العاملين؟ هم قليلون — أقل جدا مما قد تصور لنفسك — فان عملوا ساعات كثيرة كل يوم فلن ينتجوا ماينتج اهل يوتوبيا فى ست ساعات .

ثم سائل نفسك كم من هذه الفئة القليلة العاملة فى بلادنا يعمل عملا مفيدا . انهم أقل من القليل ، لانه حيث يسود المال تشيع اعمال تافهة لاخير فيها لتشبع الملاذ الدنيئة التى يسعى اليها الاغنياء . . اما اذا عمل كل فرد عملا مفيدا ، اذن لالفيتهم ينتجون فى زمن قليل مايزيد عن حاجة الجميع

وفضلا عن ذلك كله ، فأهل يوتوبيا يوفرون على أنفسهم كثيرا من العمل بفضل المساواة التى يفرضونها بين الناس . فليس لاحد منزلان أو أكثر كما هى الحال بيننا ، وبذلك يدخر البناءون

كثيرا من جهدهم الضائع فى هذه البلاد ، ولا يجوز للرجل هناك أن يستهلك أكثر من جلباب واحد كل عامين ، فأين هذا مما تراه حولك من تصرفات المترفين الاغنياء ، الذين لا يكفى الواحد منهم عشر حالن فى العام الواحد ؟

وقد تسألنى : ومن ذا يقوم فى ارض يوتوبيا بالاعمال الشاقة العسيرة كرصف الطرق وما إليها والجواب أن ذلك متروك للمسجونين من المجرمين ، فان بقي شيء أعلنت الدولة أن من يقبل على هذا العمل فله أن يستمتع بوقت فراغ أطول مما يستمتع به سائر الافراد ، وبذلك تغرى قوما باختيار هذه الاعمال ، لان حكومة يوتوبيا أخذت على نفسها ألا ترغم أحدا على عمل من الاعمال

اتصال الافراد

قلنا ان مجتمع اليوتوبيا يتألف من اسر ، وان رأس الاسرة هو اكبر الذكور سنا ، فان خرف ولى مكانه من يتلونه فى السن

وتشترط حكومة يوتوبيا ألا تزيد الاسرة ولا تنقص عن حد أقصى وحد ادنى تفرضهما الدولة فرضا ، فان زادت اسرة عن العدد المفروض اضيفت الزيادة الى اسرة قل عدد افرادها . فان زادت اسر المدينة كلها اخذت الزيادة لتكمل النقص فى مدينة اخرى . وان زادت المدن كلها اخذ العدد الزائد من كل مدينة ليجتمعوا فى مدينة جديدة تبنى لهم فى ارض مهملة .

وفى كل مدينة اربعة إحياء « اقسام » لكل قسم سوق خاصة به تضع فيه كل اسرة ماانتجته ، فيذهب ارباب الاسر ليأخذ كل منهم ما تحتاجه اسرته دون ان يطالب بثمن يدفعه ا



خير لى أن أكون ملكا على شعب غنى ، من أن أكون غنيا على شعب فقير

ضريبة يؤديها .. وفيم المال والضريبة ؟ أليس المحصول الناتج أكثر مما تقتضيه حاجة الناس؟ اذن فليأخذ كل منهم مايريد، ولا محل للخوف من طمع يغرى الناس بأخذ ما يزيد عن حاجتهم لان كل فرد يوقن يقينا لاشك فيه أنه لن يتعرض يوما للحاجة والفاقة ، فما الذى يغريه بالطمع ان صنوف الحيوان قد تخشى الحاجة والجوع فتكدس من القوت مالا حاجة لها به فى وقتها الراهن ، ويضيف الانسان الى خوفه من الجوع زهوه وكبرياءه بكثرة ماتملكه يداه . ولكن ارض يوتوبيا لاتعرف معنى الحاجة لكثرة انتاجها بسبب اشتغال أهلها جميعا بالانتاج ، ولا تعرف معنى الزهو بكثرة الاملاك لانها فرضت بين الناس المساواة فى كل شىء .

واذا ما حان موعد الطعام نفخ فى صور ليخف الناس الى قاعات فسيحة تسع افراد القسم جميعا حيث يأكلون معا طعاما واحدا : اعده طهاة شعبيون . ويجوز لمن يريد أن يحتجز لنفسه مايريد من الطعام ليأكله فى داره على حدة . ومن تقاليدهم ان يحجز أولا طعام المرضى ليرسل لهم فى مستشفياتهم ، وطعام الغرباء الذين قد يزورون بلدهم حينا بعد حين .. وتبدأ كل وجبة بقراءة شىء مما يحث على الفضيلة . ولرؤساء الاسر الحق الاول فى الحديث على الموائد ليستمع الى حديثهم سائر الافراد ؛ على ان واجب هؤلاء الرؤساء أن يستحثوا الشبان على الحديث ليعودوهم الجراة وحسن الكلام



على من يريد السفر الى بلد غير بلده ان يستأذن الدولة فى ذلك ، لتسمح له بالامد الذى يجوز له أن يقضيه فى رحلته ،

وليس هناك مايدعو المسافر الى ان يصطحب زادا او متاعا ؛ فأينما حل فهو بين اهله وعشيرته على شرط ألا يمكث بغير عمل فى مكان ما اكثر من يوم واحد ، فان اراد البقاء اكثر من ذلك كان حتمـا عليه ان يزاول مهنته على الفور . فان زاد الانتاج فى مدينة ونقص فى مدينة اخرى ، سد النقص هنا بالزيادة هنـاك . وان كان فى الجزيرة كلها زيادة فى المحصول ؛ ارسلت الزيادة الى الاقطار المجاورة لتوزع على الفقراء . .

واهل يوتوبيا لايحبون الذهب ولا يسعون اليه ، وهم يقومونه بقيمته فى الصناعة فلا يجدونه مساويا لقيمة الحديد . انهم لا يدرون لماذا تخلع الأمم على الذهب والفضة قيمة ليست لهما بحكم طبيعتهمـا ، ويرون ان الطبيعة ام رءوم ، بسطت كفها فيما يفيد فزودتنا بما لاينفد من هواء وماء وارض ، وقبضت كفها فى التوافه التى لاتنفع ودستها فى باطن الارض كما فعلت بالذهب والفضة

ولقد خشى أهل يوتوبيـا أن ينخدع بعض الناس ببريق الذهب فيأخذون فى جمعه وتحصيله ، فقرروا أن تصاغ منه قيود المجرمين واغلال المساجين ، فعقاب هذه الجريمـة قرط من ذهب يعلق بالاذن ، وعقاب تلك الجريمـة حلقة من ذهب يخزم بهـا انف المجرم ، او عقد يطوق به عنقـه او سوار يدور حول معصمه .

بهذا انزلوا من قدر الذهب والفضـة حتى اصبحا عـلامة التحقـير وموضـع السخـرية والازدراء . واما سائر الجواهر الكريمة فشأنهم فيها ان يحـلى بها الاطفـال ، حتى اذا ما شب هؤلاء عن الطوق القوا بها كمـا يلقى اطفالنا بلعبهم ، ويأنفـون اللعب بها حتى يثبتوا انهم قـد تركوا مرحلة الطفولة .

ولقد حدث ذات مرة ان بعثت بعض الدول الاجنبية بسفرائهـا

الى ارض يوتوبيا ، فرأيت بعينى راسى كيف استقبلهم النـــاس هناك ... جاء السفراء مثقلين باحمال من الذهب فى أعنـاقهم وعلى صـدورهم ظنـا منهم ان ذلك يرفع منزلتهم ومنزلة امتهم فى اعين الشعب ، فلشد ما دهشوا حين الفوا الذهب هناك سمـة المجرمين وشارة الاطفال ، فمـا لبثوا أن ألقوه حتى لا يكونوا من الناس موضع السخرية .. وقد سمعت طفلا وقف الى جانب امه اثنـاء مرور موكب السـفراء يصيح قائلا :

ـ انظرى ياأماه كم بلغ هـذا الرجل من السن وما زال يتعلق بلعب الاطفال !

فأجابته الام قائلة : صه يابنى فلعـله تابع من اتباع السفـراء جاءوا به ليكون منهم موضـع الضحك والسلوى ..

ان اهل يوتوبيا ليأخذهم العجب من رجل تبلغ به البلاهة والجنون حد الغبطة ببريق حجر كريم ، فان كان غرضه البريق المتلألىء فلماذا لا يملأ بصره برؤية الشمس والنجوم ؟.. ولشـد ما يدهش سكان يوتوبيا حين يسمعون ان اهل البلاد الاخرى يقيسون منزلة الرجل بمقياس نسج ردائه ، فان كان دقيـق الغزل كأن الرجـل شريفا نبيلا ، وان كان غليظه كان من السوقة والعامة وهم يتساءلون فى عجب : اما يدرى هـؤلاء ان الصوف الذى صنعت منه الملابس ـ رق غزلها او غلظ ـ كان يغطى جلد خروف بعينه ، وان الخراف فى منزلة سواء فلا امتياز لصوف على صوف ؟

يعجب اهل يوتوبيـا كيف تؤدى الغباوة بالناس الى تقويم الذهب ـ مع ان الذهب بطبيعته لا نفع فيه ـ تقويما يبخلون به على بعض افراد الانسان ، وكان ينبغى ان يكـون الـذهب اداة لخدمة الناس ونفعهم .. يعجبون مما سمعوه بأن الغبى الابـله فى

مقدوره ان يستذل من هم احكم منه واعقل اذا كان فى حوزته كومة من الذهب ، فان تحولت كومة الذهب الى خادمه ، اصبح الخادم من نوره سيدا والسيد خادما .. واعجب العجب عند اهل يوتوبيا ان يحترم الناس الغنى لماله مع انهم على يقين من انهم لن يكسبوا من ماله مليما واحدا .

عرف اهل يوتوبيا كل ذلك فيما لقنوه فى المدرسة وفيما قرأوا من الكتب التى يؤلفها ذوو الكفاية العقلية فى اوقات الفراغ التى اشرنا اليها .

واهم مايعنون بدراسته سعادة الانسان . والرأى عندهم ان ينشد كل انسان سعادته على شرط الا تغرينا سعادة صغرى فنفقد بسببها سعادة اكبر منها .. وهم يعدون من علامات الجنون ان يجد انسان سعادته فى اذلال غيره ، كأن يطالبه بالركوع بين يديه او بالانحناء او بلبس رداء او بخلع رداء . ماذا يفيدك ان تكلف غيرك مثل هذا ؟ أيخفف ذلك من آلامك التى تشعر بها ؟ الأن اباك او جدا من اسلافك اورثك ارضا يكون من حقك ان تكلف سواك بما يؤذيه ولا يفيدك ؟

وماذا اقول فى اولئك الذين يملكون ثروة اضخم مما يتطلبون ؟ ان الفتى الذى يملك اكثر مما يحتاج يخزن ثروته ويحرص عليها ألا تتسرب الى أيدى سواه ، فأى فرق بين مال مخزون ومال معدوم ؟

وانظر الى هؤلاء الاغنياء يقتلون فراغهم فى الصيد ، فخبرنى بربك مالذة الصيد ؟ دعك من الاذى الذى يصيب الحيوان فى غير مبرر ولا طائل ، وحدثنى لم يسر الانسان ان يتابع كلب ارنبا ؟ ان كانت اللذة فى رؤية الكلب وهو يجرى ، فلماذا لا يتابع كلب كلبا آخر ؟ واما ان كانت المتعة ان يرى الارنب قتيلا منهوش الجسد

فأى نفس هذه التى تلتمس لذتها فى منظر البرىء يسحقه المعتدى ، والضعيف يفتك به القوى المفترس؟ ان اهل يوتوبيا ليستنكرون ذلك، ولايجيزون لاحد منهم ان يسفك دم الحيوان . بل ان مايذبحونه لطعامهم يكلفون المجرمين بذبحه خشية ان يتحول القتل الى عادة فيفسد بذلك واحد منهم وتميل نفسه الى الشر .

أما سعادتهم فيقسمون اسبابها قسمين : سعادة روحية يلتمسونها فى البحث عن الحقيقة، وسعادة جسدية يجدونها فى الاحتفاظ بصحة الابدان

وهم لايقرون وجهة النظر التى تحتقر الجمال وتبدد قوة الجسد بالصوم والتقشف وما اليهما ، فليس من الحكمة عندهم ان ترفض اللذائذ مخدوعا بان ذلك هو الفضيلة ، أو ان تعرض نفسك لالوان من الشقاء والالم لتثبت انك قادر على احتمال الصعاب، فذلك فى رأيهم قسوة وجنون

ولما كان اهل يوتوبيا يعنون كل هذه العناية بصحتهم ، فأنت تراهم خفافا سراعا يمتلئون نشاطا وقوة ، وكان من اثر ذلك قدرتهم على استثمار ارضهم اضعاف ماتستثمر الاقوام الاخرى اراضيها ، مع ان تربة بلادهم ليست شديدة الخصب .. ولن تجد شعبا اطول من اهل يوتوبيا اعمارا واقل تعرضا للامراض ، وكلهم مرح رقيق سريع ذكى هادىء قادر على بذل مجهود عضلى عظيم اذا اضطره الموقف الى ذلك . ولكن حياتهم قلما تضطر احدا على الاجهاد ...

سمعنى اهل يوتوبيا اتكلم اليونانية فألحفوا فى تعلمها فعلمتهم اياها ، لا لانى اعتقد فى نفعها لهم ولكنى اردت ان اؤدى عملا ما فى تلك الارض التى لاتعرف للبطالة معنى .. فلم اكد امضى

فى تعليمهم حتى اخذتنى الدهشة من سرعة تقليدهم للنطق الصحيح وحفظهم للكلمات والعبارات . ولم تمض سنوات ثلاث حتى كان فى مقدورهم ان يقرءوا ما ارادوا من الكتب اليونانية . . فاستعاروا منى كثيرا من كتبى ، وبخاصة كتب افلاطون وارسطو ، وكان عندهم عدد كبير من مؤلفات بلوتارك وارستوفان وهومر ويوريبيدوس وسوفوكليز وثيوسيديد وهيرودوت .

العبيد والمرضى والعلاج

كل من اجرم اصبح عندهم عبدا رقيقا يكلف باشق الاعمال ويعمل عملا متصلا لا ينقطع ، ولا تحل عنه الاغلال مادام عبدا ، وهم يبررون هذه القسوة بقولهم ان هؤلاء المجرمين قد نشأوا فى بلد هيأ كل فرصة ممكنة لعمل الفضيلة وطاعة القانون ؛ فان اغرت الرذيلة احدا بارتكابها رغم كل ذلك فهو خليق ان يستذل فى غير رحمة .

واما المرضى فيلاقون منهم عناية ورعاية وعطفا . فأهل يوتوبيا لا يألون جهدا فى معالجة مرضاهم .. فان اصيب المريض بعلة لا يرجى شفاؤها وجدتهم يسارعون الى مجالسته ومؤانسته ليرفهوا عنه . اما ان كانت العلة تسبب للمريض ألما فضلا عن استعصائها على البرء فان القساوسة ورجال الدولة يأخذون فى اقناعه بقتل نفسه حتى يتخلص من ذلك الالم الممض لانه فوق انه يؤلم سواه ولا يعمل للدولة عملا مفيدا . ولكنهم لا يجبرون المريض على الموت اجبارا بل يقنعونه به حتى يستل روحه بيده او يسمح لغيره ان يفعل ذلك وهو غارق فى نعاسه .. اما من يقتل نفسه دون ان يأذن له القساوسة ورجال الدولة ،

فهو لا يستحق منهم دفنا اواحراقا ، ولذا تراهم يلقون جسده في مستنقع كريه .

اما الزواج فلا يؤذن للمراة به قبل الثامنة عشرة وللرجل قبل الثانية والعشرين . والزواج متى تم عقده بين الزوجين لا ينفصم الا بالموت او الزنا او بأن يسلك احد الزوجين سلوكا غير محتمل وهم لايجيزون قط ان يطلق الزوج زوجته لان مرضا اصابها اذ يرونها قسوة وحشية ان تهجر انسانة في وقت هي فيه احوج ماتكون للمعونة والسلوى

ويجوز الطلاق ان اراد الزوجان ذلك ، مادام كل منهما قد وفق الى شريك اصلح من شريكه الراهن ، على ان يعرض مثل هذا الامر على مجلس الشورى .

واهل يوتوبيا قد تواضعوا على ازدراء المراة التي تحتقر الجمال الطبيعي فتقلده بالاصباغ والوان الطلاء ، وقد علمتهم التجربة ان حب الزوج لزوجه لايتوقف على خلابة الوجه بقدر توقفه على الشرف والفضيلة فان كان الجمال يبعث على الحب بادىء ذي بدء فلاشك في ان فضيلة المراة وطاعتها لزوجها هما اللذان يعملان على بقاء الحب ودوامه . وهم لايردعون ابناءهم عن فعل الرذيلة بالعقاب ، ولكنهم يحببونهم في الفضيلة بالجزاء والثواب ، وهم فوق ذلك يقيمون في ساحة السوق تماثيل العظماء الذين احسنوا للدولة صنيعا حتى يمثلوا في ذاكرة الناشئين ويحفزوهم الى خدمة بلادهم واصطناع الفضيلة فيما يفعلون .

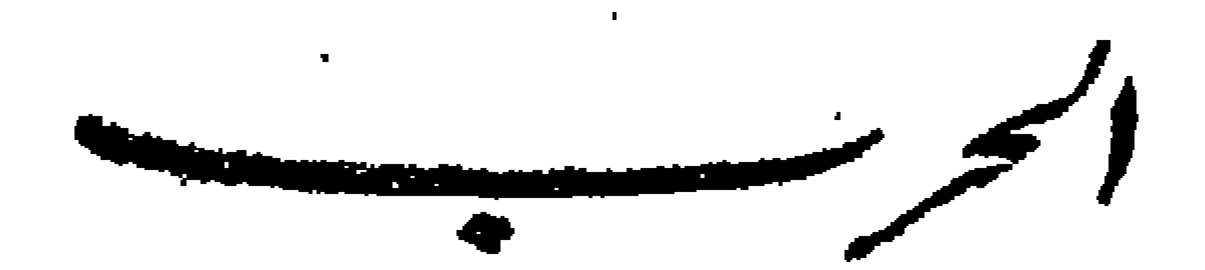
المحبة والاحترام يسودان معاملة الناس بعضهم لبعض ، ولا فضل لرئيس على مرءوس فلا زهو ولا كبرياء . ولا يتميز اميرهم بلبس الحرير او الذهب ، بل شارة الملك عندهم سنبلة قمح يحملها رجل امام الملك . وقوانينهم قليلة العدد جدا ،



عقاب المجرم حلقة من الذهب يخزم بها انفه

لان شعبا بلغ مابلغه اهل يوتوبيا من التقدم لايحتاج سوى قليل من موادالقانون . وهم يعيبون على سائر الشعوب أن تطنب فى قوانينها وتطيل حتى تملأ بها المجلدات الضخام التى لايجدافرادالشعب من فراغهم وقتا لطالعتها ، وان هم طالعوها الفوها اعمق من متناول افهامهم واغمض .. وهم لايجيزون ان يلجأ احد الى محام يدافع عنه امام القضاء ، فكل امرىء هنالك يحفظ القانون ، ويدافع عن نفسه .

وهم لايؤمنون بالمعاهدات بين امة وامة ، اذ يعتقدون ان الانسان بطبعه محب لاخيه الانسان ، وان لم يكن كذلك فلن تجدى كلمات مكتوبة نفعا فى تعليمه ذلك الحب



واهل يوتوبيا يمقتون الحرب مقتا شديدا ، لانها نكسة بالانسانية الى حيث الهمجية المتوحشة ، وهم لا يعدون النصر فى الحروب من ضروب النصر .. ولكنهم على الرغم من ذلك يدربون ابناءهم جميعا ، رجالا ونساء ، على المقاتلة كى يخفوا الى صد العدو ان هاجمهم عدو ، اويدرأوا عن اصدقائهم الخطر ان دهمهم خطر ، او يحرروا شعبا ارهقه الذل والاستعباد لانهم يطمعون أن يكونوا حماة الحرية والاخاء

وتراهم مع ذلك يكرهون ان يدحروا اعداءهم بسفك الدماء ان افلحت وسيلة غير ذلك ، وهم يعدون اكبر النصر وادعاه الى الفخر ان يردوا كيد المهاجمين بالحيلة والخداع والذكاء والدهاء ، فان وفقوا فى ذلك رأيتهم يقيمون انصاب النصر فى كل مكان ويفرحون ويمرحون ، لانهم يؤمنون بأن نصر الذكاء وحده هو الجدير بالانسان ، واما ضرب الجسد للجسد والفتك واراقة

الدماء وازهاق النفوس فتلك وسيلة فى مستطاع الاسود والذئاب والكلاب وكل ذى ظفروناب

الدين

فى أرض يوتوبيا ضروب متنوعة من العبادات والعقائد ، فمنهم من يعبد الشمس ومنهم من يؤله القمر ، وهكذا الى آخر ما تسمع به من الوان الدين ... ولكن هؤلاء مجموعات قليلة العدد ، واما الكثرة الغالبة هنالك فتعتقد فى اله قوى قادر ابدى خالد ، واليه ينسبون الخلق ومايصيب الاشياء والاحياء من تغير وتفكك وانحلال . ويظهر ان ضروب الديانات الاخرى آخذة فى التقلص امام هذه الاخيرة لانها تبدو لهم اقرب الى المعقول ... وما كدت اقص عليهم نبأ الديانة المسيحية فى ارضنا حتى اقبلوا على اعتناقها زرافات وافواجا ، لماذا ؟ ... لانها تبشر بمذهب الشيوعية التى تمحو فوارق المال بين الرجال

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ان رجلا منهم أخذته الحماسة فى اعتناق المسيحية حتى انطلق يهجو سائر الديانات ، فأنزلت به الدولة عقابا صارما ولم تلبث ان ابعدته عن ارضها ، لانه يثير فى الناس الفتنة الدينية ، وليس اشد من الفتنة عندهم شناعة واجراما . هم يبيحون لكل انسان ان يعتنق مايشاء من العقائد ، وان يبشر الناس بمذهبه مااستطاع ، على شريطة ان يكون ذلك فى غير اعتداء على سواه .. . ولعل ذلك أول قانون سنه لهم مؤسس الجزيرة الملك يوتوبس حين اقبل على تلك البلاد فوجدها ممزقة بالخلاف الدينى ، بل ان ذلك الخلاف نفسه هو الذى مهد له النصر والغلب ، فشرع لهم الحرية فى

الدين . فان لم يستطع الرجل ان يقنع غيره بالقول والحجة ، فلا يجوز له قطعا ان يلجأ الى القوة والارهاب .

وليس بين اهل يوتوبيا من يخصص نفسه لدراسة الدين كى يجعل الدين مهنة وصنعة ، اذ الشائع عندهم ان السعادة فى الدار الاخرة مرهونة بشىء واحد : وذلك ان تنفق هذه الحياة الدنيا فى عمل مثمر منتج

والايام المقدسة عندهم اول كل شهر وآخره ... واما الكنائس فجميلة البناء رائعة المنظر ، فسيحة الارجاء تسع عددا كبيرا فى وقت واحد ، وهى معتمة بعض الشىء فى داخلها لانهم يرون ان شدة الضوء توزع الانتباه ، وهم حريصون على ان يركز المصلون انتباههم فى صلاتهم

والكنائس اعدت بحيث تلائم العقائد على اختلافها ، فليس فيها شارات لدين بعينه ، ولذا فالناس جميعا يحتشدون فى بيوت الله جنبا الى جنب وان اختلف الاله المعبود ، كل يصلى لربه ، وذلك ليؤاخوا بين العقائد ما امكن ذلك

وهم يذهبون الى بيوت الله فى آخر الشهر ليرفعوا الحمد لله على ان انقضى شهرهم بخير ، وفى اول الشهر ليدعوا الله ان يغمرهم ببركته فى شهرهم المقبل

ولا يجيز اهل يوتوبيا ذبح الذبائح لانهم يعتقدون ان رحمة الله اوسع من ان يستنزلها سفك دماء الحيوان الذى ماخلقه الله الا ليحيا .

تلك هى يوتوبيا — الدولة المثلى — التى اشاعت كل شىء بين الناس جميعا ، فلا تعرف ما الفقر وما معناه . ان احدا منهم لا يملك لنفسه شيئا ، ومع ذلك فكل الناس اغنياء . ولم لا يكون غنيا من لا يعنيه امر معاشه فى غده ومن لا يؤرقه هم ابنائه وبناته خشية ان يصيبهم الفقر والتشريد بعد موته ؟

من ذا يجرؤ ان يدعى بأن بلادنا تعرف العدل بمعناه الصحيح ؟ من ذا يزعم ان العدل يسود بيننا وهو يرى تحت انفه ان الاغنياء لايعملون شيئا ، او قل لايعملون عملا مفيدا لانفسهم او لامتهم ؟ فاى عدل يجيز ان يستمتع هؤلاء بالمال الوفير ، بينما العمال من زراع وصناع ، الذين يكدحون كدحا مضنيا ، والذين لولاهم لما قامت للدولة قائمة ، يعيشون فى ذل وبؤس وفقر ، انهم يعيشون فى بؤس لايعرفه الحيوان الاعجم ، لان الحيوان لا يعمل طوال يومه ، ولان الحيوان لايضنيه التفكير فى غده ، كما يشقى العامل الفقير المسكين حين يفكر فى سن الشيخوخة ويسائل نفسه : ماذا انا صانع فى شيخوختى التى ستعجزنى عن العمل فلا اجد ما اقتات به ؟ ان اجور هؤلاء العمال لاتكاد تكفى سد الرمق فى حاضرهم ، فكيف بهم فى مستقبلهم ؟

أليست بلادنا قاسية ظالمة حين تكيل المال كيلا للسادة الذين لايعملون شيئا ، ثم تغل يدها الى عنقها حين تؤجر الحارث والصانع والعامل الذين لا دولة بغيرهم ؟ فان تقدمت بهؤلاء السن ، وعجزوا عن كسب القوت ، نسيت الدولة ماقدموه لها فى سن الشباب من خدمات ، وتركتهم يتضورون جوعا ومرضا ، ويموتون هملا لايابه لهم انسان

الا ما أبعد الشقة بيننا وبين اهل المدينة الفاضلة الذين اقتلعوا المال من جذوره ، فانمحت اسباب الشقاء والفقر

فلما اكمل روفائيل قصته عن ذلك البلد السعيد ، كان الوقت قد حان للعشاء ، فاصطحبته الى المائدة ، وتواعدنا ان نتلاقى مرة اخرى لنبحث فى تلك النظم التى روى لنا نبأها ، والتى لااوافق على بعضها ، ولكنى لااجد لنا محيصا عن بعضها الاخر ان اردنا ان نحيا حياة هانئة سعيدة



نبذة عن حياة صموئيل بتلر

ولد بتلر عام ١٨٣٥ من اسرة دينية فى انجلترا ، وتلقى علومه فى كامبردج . وقصد أولو أمره أن ينخرط فى سلك رجال الدين ، ولكنه آثر لنفسه رعى الاغنام وتربيتها فى زيلنده الجديدة ، وقد عاد الى انجلترا عام ١٨٦٤ حيث أخذ يكتب المقالات الفكاهية يتهكم بها على نظرية دارون التى درسها دراسة دقيقة وهذا الكتاب الذى نحن بصدده حلقة من سلسلة تهكمه المرير الذى أخذ يصبه على نظام المجتمع تارة وعلى رجال الدين طوراً ، وعلى العلم وأصحابه طوراً ثالثا ... وسترى أنه نقد للنظام القائم فى خيال خصب عجيب يستوقف النظر ويستثير التفكير والتامل فى كل موضع من مواضعه ، فهو نقد لما هو كائن أكثر منه بناء لما يجب أن يكون .

ومن أوضح معالم الكتاب ، التى نحب أن نثبتها قبل قراءة خلاصته ، لتعين القارىء على جودة الفهم ، انه يعرض نظاما عجيبا يخيل عند قراءته انه نظام مضحك أحمق ، ولكنك اذا أمعنت فى النظر ، وجدت النظام المشروح هو نظامنا القائم بعينه ، وتلك لعمرى أفعل وسائل النقد .

وهو ينادى فى هذا الكتاب بوجوب الإعتدال فى استسلام الناس لاحكام العقل ، واستماعهم الى صوت الغريزة والبصيرة الفطرية ، فانكارهما انكار لطبيعة الانسان وقوام وجوده ، وهما نتيجة سلسلة متصلة من التجارب

(١) هذه الكلمة قلب لكلمة Nowhere ومعناها « البلد الذى لا وجود له » ، وتلك مبالغة من الكاتب فى أنه سيصف بلاداً لا وجود لها

الصحيحه .. فهو حين يتناول لغز الحياة بالتحليل والتعليل ، تراه ينزع منزع الفلاسفة المثاليين وينكر الفلسفة المادية انكارا قاطعا . فالتطور — مثلا — فى رايه صحيح ولكن على شرط أن يفهم كما فهمه برجسون من أن هناك قوة خفية تسعى للوصول الى غرض معين ، وتلك القوة الخفية هى الحياة نفسها ، لا كما فهمه دارون من أنه خاضع للانتخاب الطبيعى الذى يقوم على المصادفة الاليه وحدها ، تلك المصادفة التى لاتعرف غرضا سوى صلاحية البقاء

ومما اخذ يبشر به بتلر منذ شبابه ان ياخذ الناس بديانة عقلية ، وستراه فى ارون يصب مر السخرية على رجال الدين حين يصورهم وكانهم قلبوا الكنائس الى مصارف يتعاملون فيها كما يتعامل أصحاب الاعمال فى البنوك ، غير ان الصكوك فى مصارف الكنائس صكوك تدر الربح فى الحياة الاخرة . وهو يرى أن اساس الدين واه ضعيف ، ولذا لجأ الى التشاؤم والجبن وسهولة التصديق ... نعم أن بتلر لايريد أن يسود العقل الصرف فى الدين بل يحب أن يمازجه شىء من التصوف الى جانب شىء من الاوهام التى تبعث فى النفس مشرق الامل دون ان تعود على الانسان بالضرر ، ولكنه يحتم أن ينبع ذلك التصوف وهذا الوهم من باطن النفس والا يفرض عليها فرضا

وستراه فى هذا الكتاب يمزج التفاؤل بالتشاؤم حتى يخفف أحدهما من حدة الاخر ، فهو متشائم حين يعرض هذه الفكرة الخيالية البديعة التى يقول فيها ان الاجنه قبل مجيئهم الى هذا العالم كانوا يعيشون فى عالم الخلود ، ولكن الغفلة الحمقاء آثارت فى بعضهم رغبة المجىء الى دنيانا فراحوا يوسوسون للزوج أن يلاقى زوجه ، مع ان الاحياء يمقتون الحياة ولا يحبون دوامها وتكرارها لولا هذا الاحراج ممن لم يولدوا بعد .. فانت تقرأ بتلر فى هذا فيخيل اليك أن شوبنهور يتحدث من جديد ، .. ولكن بتلر يعود فينثر لمحات من التفاؤل حين يقول أن الحياة خير ، لو وفق الانسان بين نفسه وبين الطبيعة ، وهو يستطيع ذلك ان أراد .

ومن امتع فصول الكتاب ماقاله فى الالات ، وانه يخشى ان يجىء عصر تطغى فيه الالة على الانسان فتصبح سيدة له وهو عبدا لها ، وأحب أن يقرأ القارىء هذا الفصل على أنه تهكم لاذع لنظرية دارون فسيرى كيف يطبق بتلر أصول نظرية دارون فى التطور على الالات فلا يرى مستحيلا أن تتطور الالة وتسبق الانسان فى تنازع البقاء كما سبق الانسان صنوف الحيوان وهو بذلك يريد أن يؤيد وجهة نظره بان أساس التطور محاولة الوصول الى غاية معينة مقصودة وليس الصدفة البحتة كما قال دارون

وسيقرأ القارىء فى هذا الكتاب ان أهل ارون يحاكمون المريض لانه مريض

اذ يعتقدون ان المريض مســـئول عن علته ، وسيضحك القارىء ملء شدقية ولكنه اذا تدبر الامر قليلا علم أن ذلك هو سبيلنا نحن فى محاكمة المجرمين ، فالمجرم مريض جاء اجرامه نتيجة عوامل البيئة والوراثة وهو لايسأل عن اجرامه الا بقدر مايحاسب العليل على علته

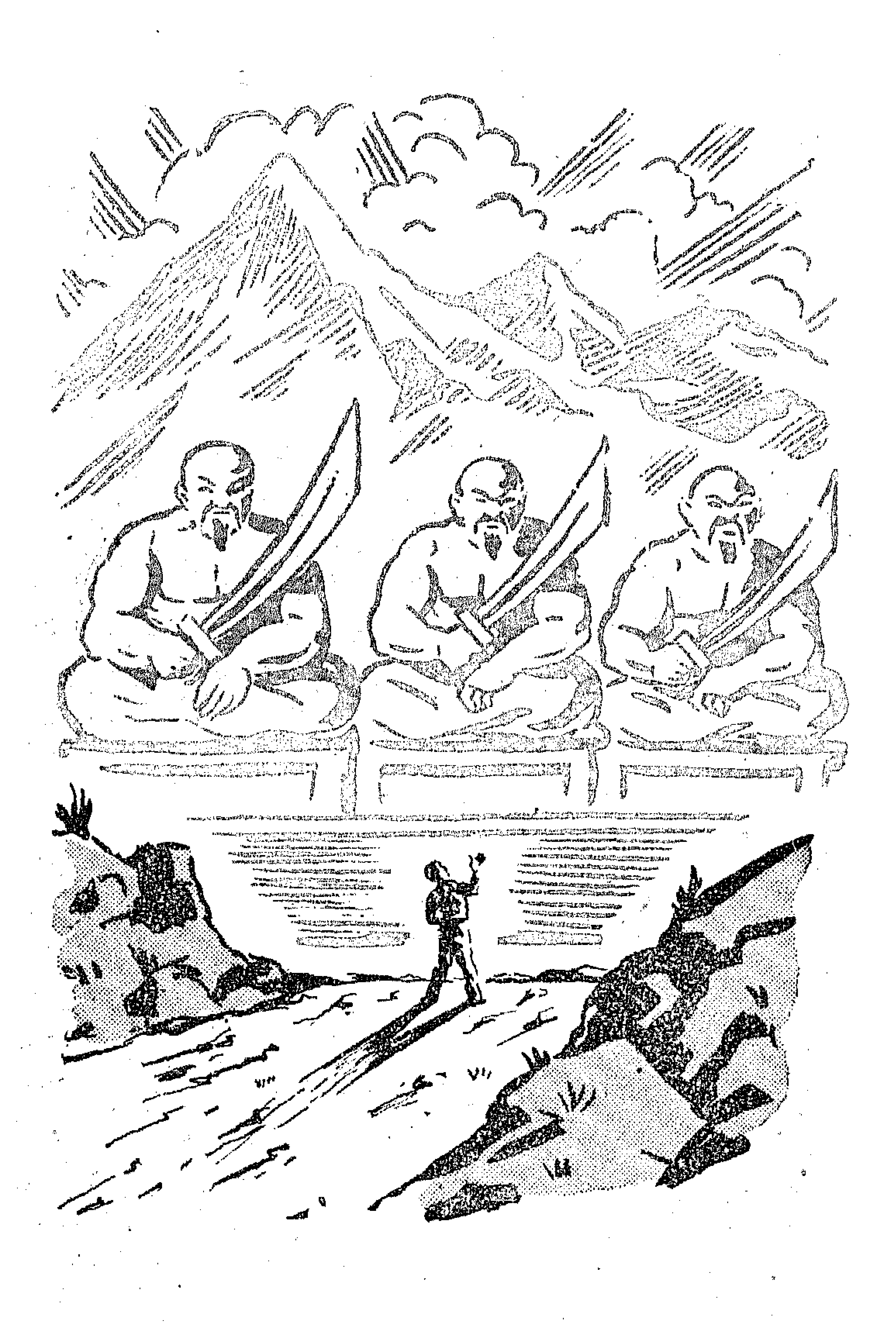
وأعود فاكرر أن يتنبه القارىء لروح التهكم فى ارون ، والا طوى الكتـــاب وكأنه لم يقرا شيئا

اروت EREHWON

الماشية فأكون من ذوى الثراء ،ولكنى لم اظفر ببغيتى وان كنت قد شاهدت فى رحلتى عجبـــا سأرويه للنـــاس ، وسأرويه كارها لانى اكاد اوقن ان لن يصدق الناس ما اقــول ـ الا اذا رويت القصة كاملة ، وانا مضـــطر الا اروبهـــا كاملة ، لانى احب ان اخفى معـــالم الأرض المكشـــوفة حتى لايسبقنى اليها احد من اصحاب المال ، وليكن عزائى ان الصدق يحمل فى طيه طابعا يدل عليه ، ومهما يكن من امر هــذه القصة فهى تحمل دلائل صدقها

بلغت غايتى المنشودة فى اواخر سنة ١٨٦٨ ، فوجدتها بلدا لم يفتح ابوابه بعد للبسل المغامرين ،ولا يزال يسكنه عدد قليل من الهمج ، يحتشدون فيه عـــلى شاطىء البحر . ولكن فئة من المهاجرين الاوروبيين اهتدت فى جواره الى قطعة من ذلك الساحل يبلغ طولها ثمانمائة ميل ،وتعمق فى داخل اليابس الى نحو ثلاثمائة ميل يحدها جبل شامخ ينهض على صـــدر السهل المعشوشب وتتوج ذراه الثلوج الدائمة .. وقد استغل جمـــاعة الاوروبيين ذلك الســـهل الخصيب الممرع فاخـــذوا يرعون به الماشية ، وانتشروا فى بقاعه حتى امتلأت بهم ارجاؤه .. وفى هذا السهل حططت رحالى عامـــلا فى كنف واحد من أولئك الرعاة ، وقـــد بلغت من العمـــر اذ ذاك اثنـــين وعشرين عاما

كان منوطا بى ان اصعد مع الصباح الى شرف من الجبـــل لالحظ السائمة فلا تتبعثـــر فى شعاب الجبل ، ولم تكن تكلفنى



انني بازاء حلقة من اشباح جبارة تشق برءوسها استار السحاب

تلك الحراسة سوى ان اجلس وادور بعيني الحين بعد الحين فتكفيني نظرة واحدة سريعة لاعلم ان ماشيتي هنالك لم يصبها أذى ، وكنت اظل في مستقرى ذاك مزودا بما يلزمني غادرت ارض الوطن لعلي أصادف بلادا خصيبة ارعى فيها من الخبز واللحم والتبغ ، فلا اهبط الا مع المساء

كانت حياتي تجرى على نسق واحد يوما بعد يوم ، ولكنها حياة تبعث الصحة والنشاط ، وماذا يعنيك من الدنيا لو كنت معافى صحيح الجسد ؟ .. فكم جلست في ذروتي ارسل البصر الى وهاد الارض ونجادها ، وقد بدا لى السهل المخضر في الافق النائي مبسوطا حتى ينتهى الى نهر يتألق بريقه حين ينساب في سندس النجيل ، وقد شمخت على ضفته البعيدة سلسلة ناتئة تضرب في اجواز السماء ، فتارة تبدو للعين ناصعة البياض تلفها سماء سوداء ، وطورا تراها داكنة السواد تشق بقننها سماء بيضاء . ولعل اروع ما وقع عليه البصر منظر السحاب من دوني — حين كنت امعن في الصعود فكنت ارى قزعة تموج كأنها اوازى المحيط جزره قمم الجبال الناتئة

ترى ماذا وراء ذلك الجبل السامق ؟ وماذا ان اخذت زادي وضربت في الارض لاستكشف ماوراء الجبل ؟ انى لو فعلت لكان نصرا مابعده نصر

وقد عن لى ان اسأل رجلا من اهل الاقليم عما يعلمه عن الجبل الذى اعتزمت عبوره — اذ تمنيت ان يصحبني في رحلتي — فما هو الا ان اعترته رعدة الخوف ، ونهض من فوره يدحرج كيسين من اكياس الصوف كانا الى جواره ، واعتلاهما وتلفع بكيس فارغ وجلس جلسة تبعث الرعب والفزع ، يضغط على اسنانه ويكشر عن انيابه ويخرج انغاما موسيقية عجيبة من فمه ، ثم هبط الى الارض يرتعد ويرتعش ويشير بأصبعه الى الجبل

ولكن فزعه من الجبل لم يصدني عن الرغبة فى عبوره ، بل ازددت الى ذلك شوقا وحماسة ، واشتدت رغبتى فى اصطحاب ذلك الرجل ، فعرضت عليه ان يرافقنى فى رحلة قصيرة الى شاطىء النهر ، ولم اذكر له الجبل الذى يثير فى نفسه ذلك الرعب المخيف .. وقبل الرجل ، فاعددنا جوادا مسرجا وبعض الفراش والغطاء ، وما قد احتاجه من مؤونة وزاد ..

مضى اليوم الاول فى طمأنينة ويسر ، وصادفنا فى بعض الطريق الوانا من جمال الطبيعة لو حاولت تصويرها لخانتنى اللغة التى لم تخلق لمثل هذا الجمال الفاتن ! .. وجاء المساء وضربنا الخيمة ومهدنا الفراش ببعض العشب الوثير .. وصحوت فى جنح الليل فاذا المنظر يخلب الافئدة والسكون من حولى ممتع للديك ، والنجوم تتألق فى صفحة السماء والقمر يسطع ناصعا على ثلوج الجبل .. واحسست براحة العقل والجسد راحة لا يعرفهما الا من انفق بضع ليال فى طلق الهواء ...

صحونا فى صباح اليوم الثاني واستأنفنا الرحيل .فكان هذه المرة شاقا عسيرا ، حتى بلغنا الخانق الضيق الذى يتدفق منه النهر ، ولكن النصب قد هد اجسادنا ، واخذ المطر ينهمر مدرارا ، والسحاب الكثيف يلفنا فى اطوائه .. وهكذا انفقنا سبعة ايام فى صعود وهبوط وهبوط وصعود ، حتى ادركنا آخر الامر سفحا جميلا سهلا يهون فيه السير وينعم برؤيته النظر ، وهو سفح الجبل المنشود ، فأخذت اعلو نحو القمة وقد شاع السرور فى نفسى ... ولكنى كم دهشت حين ادرت وجهى لارى رفيقى فوجدته قد عاد مسرعا ، لان الجبل قد اثار فى نفسه كوامن الفزع ... وخلفنى وحيدا

ماذا انا صانع فى هذا الموقف الرهيب ؟ ! اعود والنصر قد بات منى قاب قوسين او ادنى ، ام اجاهد لادرك غايتى على ما فى ذلك من خطر داهم .وعسر شديد ؟ لا ! لابد ان امضى حتى

ابلغ ما اريد الا ان صادفني في الطريق من الصعاب مالا قبل لي وحدي به ، عندئذ فقط اعود مضطرا آسفا .. الاما اشد العزلة على النفس ! ان كل شيء يبعث الخوف والوجل ، بل ان نغمات الطيور تبدلت الى صيحات مرعبة .. وما احلى دقات ساعتي حينئذ ! انها وحدها تذكرني انى انسان من بنى الانسان ..

اقبل المساء فأخذت في النعاس ، ولكنى استيقظت في جوف الليل فسمعت صوتا موسيقيا عجيبا .. ماذا ؟ انه يماثل الصوت الذى كان ينبعث من رفيقى حين جلس على اكياس الصوف .. وما هي الان فنى الصوت فحمدت الله واستأنفت النعاس

اشتدت الوحشة وثقل الهواء ويبست الارض ، واعترانى شعور عجيب ، وهو انى فقدت شخصيتى ، اعنى ان ماضى حياتى قد تفككت عراه التى تربطه بحاضرى ، ولعل هذا الشعور اول علائم الشرود الفكرى الذى يصيب من يضلون الطريق .. واخذت اجاهد واكابد عناء السير ، حتى شهدت على صفحة الثلج آثارا لاقدام كادت تذوب وتنمحى فأحسست مزيجا من شعور الغبطة وشعور الخوف ، ومضيت في طريقى اتحسس وقع القدم في حذر شديد لان الضباب الكثيف قد اعتم امامى الطريق .. ما هذا الذى ارى وسط الضباب ؟ اننى بازاء حلقة من اشباح جبارة قائمة تشق برءوسها استار السحب المسدلة ! فلم اكد اتبين هؤلاء الشخوص المروعة حتى تولتنى قشعريرة عنيفة لم ادرمعها شيئا مما حولى ، ولعل اغماءة قد غشيتنى لحظة ، ثم أفقت مرتعدا فاذا بى ملقى

الى جانب هذه الجماعة من الشخوص الساكنة الصامتة .
شاءت رحمة الله أن يمر بذهني خاطر عجيب ، وهو أن اعد من واحد الى خمسين ، محدقا بنظرى الى تلك الاشباح ، فان لم يتحرك احدها رجحت أن تكون مجموعه من التماثيل .
وعددت ما أردت مرتين فلم ألمح فيها حركة ، فتقدمت فى فزع ألمسها من أطرافها الاتق مما رجحت حتى انقلب ظنى يقينا وازيح عن صدرى ذلك الكابوس المخيف . إنها مجموعة من التماثيل صفت وقد اجلست على سور من الصخر جلسة تماثل الجلسة التى اصطنعها رفيقى على أكياس الصوف ، وعلى وجوهها نفس الملامح البشعة التى كان قد مثلها الرجل فى جلسته .. وما هى الا أن هبت موجة من الريح العاصف ، فلشد ما دهشت حين وجدت الريح فى تخللها رءوس الاشباح ، الخاوية تعوى كأنها الذئاب او تئن انينا مروعا ، فلا تسل كم خارت قواى عندئذ ، ولكنى رغم ذلك انطلقت اعدو فى اطباق الضباب المنشور ، حتى غابت الشخوص عن البصر .

بلغت خانقا فى الجبل نفذت خلاله الى السفح فاسرعت هابطا ولكن الفزع مايزال يشيع فى نفسى وترتعد له فرائصى ، ترى هل أقبل على قوم همج يذبحوننى ضحية لاربابهم تلك ؟ .. لا ! انى أرى هنالك جسرا والهمج لا يبنون الجسور ، فلا شك انى قادم على قوم اخذوا من المدنية بقسط موفور .. طفقت اهبط سفح الجبل ، ولم تلبث شمس الاصيل ان سطعت بالدفء والنور ، فما احلاه من دفء وما أجلاه من نور بعد الذى قاسيت من برد وعانيت من ضباب وسحاب !

هأنذا ارى سهلا مريعا قد انتشرت فيه المدائن وازدحمت فيه المبانى ذات المآذن والقباب ، فاستبشرت خيرا واستلقيت فى فىء شجرة — وكان قد هدنى اللغوب — فغرقت فى نعاس عميق أيقظتنى منه أجراس ترن ، فشخصت بناظرى واذا بى ارى فتاتين جميلتين كانتا سائرتين ، ولم تكدا تريياننى حتى تولاهما

الدهش ، واخذتا تحدقان فى تارة وفى بعضهما تارة أخرى ، ثم صرختا صرخة عالية وتولاهما فزع وخوف فانطلقتا تعدوان ، ولم تمض ساعة حتى عادت الفتاتان ومعهما شرذمة قليلة من الرجال ..

وأول ما استرعى منى النظر هذا الجمال الفاتن فى النساء والرجال على السواء ! ..رايتهم فنهضت أتوكأ على عصاى ووجهت خطابا بالانجليزية الى أحدهم — وان كنت موقنا أنه لم يفهم عنى شيئا — فقلت اننى لا أدرى ما هذا البلد الذى ادركته بالمصادفة بعد رحلة مليئة بالعسر والخطر ، واننى طامع فى رحمتهم وعفوهم . فأشار الى الرجل أن أتبعهم ففعلت .

ولم تمض بضع دقائق حتى بلغنا قرية صغيرة ازدحمت دورها وضاقت طرقها ، فكم اثار قدومى فى القوم من دهشة ، ولكنها دهشة تمازجها الرقة والخلق الكريم ، فاكرموا مثواى وقدموا لى العشاء لحما ولبنا وبلغت منهم الدهشة أشدها حين رأونى ادخن الغليون واقدح الكبريت .. أما انا فقد احسست نحوهم باعجاب واكبار لما لمسته فيهم من هدوء فى الطبع وكمال فى الخلق ، واستوقف نظرى أن اراهم يأكلون على النمط الاوروبى مع اختلاف فى أدوات الاكل وحدها ، وان تأثيث الغرفة يجرى على أسلوب انجليزى محض . فساءلت نفسى : ترى من يكون هؤلاء القوم ؟ أيكونون هم قبائل اسرائيل التائهة ، لا يزالون احياء فى هذه الارض المجهولة يرقبون العودة الى فلسطين ؟ ولكنى لم ألمح فيهم أثرا للدين ، فلمعت فى رأسى فكرة قوية أأهديهم الى الدين القويم فأنعم بالدارين وأكون من الاولياء الصالحين ؟

أكلت طعام الافطار فى صبيحة اليوم التالى ، ثم اشار الى بعض القوم فتبعتهم فى رحلة لست اعلم مداها ، فشققنا طريقنا فى الجبال المثلوجة تارة وفى جوف الغابات طورا وعلى السهول البسيطه مرة ، ونمر بالقرى الحين بعد الحين .. ولم أزل

معجبا اشد الاعجاب بهذا الجمال الفاتن الخارق الذى يمتاز به اهل ذلك الاقليم ، فالنساء اصحاء اشداء رافعات الرءوس ناهدات الصدور يشع منهن الجمال والجلال ، وللرجال روعة وفخامة تأخذان باللب والبصر ، قد اجتمع فى أجسادهم الجمال المصرى الى الجمال اليونانى والايطالى ، واطفالهم يمتلئون صحة ونشاطا ، ولا تقع العين من أقصى الارض الى اقصاها على انسان قذر يمجه النظر ..

وانتهى بنا المطاف الى مدينة كبيرة ، حيث امر القاضى أن اوضع فى حجرة وجدت بها رجلين بدت عليهما علائم المرض ، فكانا أول من شاهدت فيهما هزال العلة بين أولئك القوم .. وان هى الا فترة قصيرة استدعى بعدها المريضان واستدعيت فى اثرهما ، وكان ذلك لفحص طبى دقيق قام به طبيبان .. ثم امر القاضى ان تفرغ جيوبى مما بها ، ولم يكد الباحث يخرج ساعتى حتى أخذ الحضور شعور الامتعاض والاستياء لسبب لم ادره اذ ذاك . نعم ادهشنى فزع القاضى من هذه الاله العجيبه يحملها رجل متمدين ، فظننته بادىء الامر فزعا لجهله بأمرها ولكنى سرعان ما تبينت انه كارة ماقت لايرى مبررا أن يستعين الانسان بآلة كائنة ما كانت ، وامرنى الرئيس على الفور أن أتبعه الى حجرة شهدت بها عجبا عاجبا ، شهدت بها صناديق القيت فيها اجزاء من آلات محطمة ، وأشار الرئيس الى صندوق امتلأ بساعات بالية وامرنى أن أقذف بساعتى بين تلك الاشلاء .. ولم ألبث قليلا حتى جاء من ساقنى فالقى بى فى حجرة من بناء قريب ، عرفت فيما بعد أنه السجن .

احسست بالحزن والقلق والوحشة . وشاقنى ماشهدت الى تعرف عادات القوم ، فما معنى تلك الغرفة التى امتلأت بآلات محطمة ، وماذا يغضب الرئيس ان يجدنى أحمل ساعة تنفعنى ولا تضره ؟ ولكنى فكرت قليلا فتذكرت أنى لم أصادف عند القوم آلة يستخدمونها فى حياتهم . ان القوم لم يكونوا من

السذاجة بهذا القدر ؟ بل انهم يحيطون علما بكل مابلغته المدنية الحديثة من مخترعات . فكيف اعلل علمهم بأسباب المدنية كلها مع احجامهم بل اضطهادهم لثمرات المدنيه وزاد فى حيرتى ان علمت انهم كانوا قد اصطنعوا فى حياتهم منذ قرون كل مانصطنعه اليوم فى اوربا من اختراع ، وانهم عادوا فنبذوا كل ذلك نبذ النواة !

كنت افكر فى ذلك حين جاء الى غرفتى رجل قيل انه معلم ارسله أولو الامر ليعلمنى لغة البلاد ، فاغتبطت لذلك : أولا لاعلم لغة البلاد فتقل وحشتي وثانيا لانى استخلصت من ذلك ان الدولة لا تضمر لى السوء .

وما كدت أطلق لسانى فى لغتهم بعض الشيء حتى اخذت استفسر من السجان وابنته — وكثيرا ما كانت تفد الى غرفتى — عما صادفت من مشكلات لم أفهمها فعلمت أن ساعتى هى سبب نكبتى ، وان من يحمل آلة عند اولئك القوم لا يقل خطرا عمن يحمل حمى التيفوس .

ومن اعجب ما اثار دهشتى اننى شعرت يوما بمرض خفيف ، فلما اقبلت ابنة السجان تحمل الى طعام الافطار انبأتها بعلتى ، وكنت أطمع منها فى عطف ومواساة ، ولكنى لشد ما دهشت حين رايت الفتاة ثائرة غاضبة

ثم قالت : لولا أنى اشفق عليك لانبأت ابى بهذا الجرم الشنيع . فسألتها أى جرم أتيت ، فان كنت قد أخطأت فعن جهل لا عن عمد . فنظرت الى نظرة المبهوت واجابت : ان المرض فى ارض ارون جريمة لاتغتفر ، واعتداء على القانون لاتجد الرحمة اليه سبيلا فلو بلغت شأنك الى ذوى السلطان لقدموك على الفور الى محكمة تقاضيك وتلقى بك فى سجن كريه أمدا بطول او يقصر باختلاف المرض الذى أصبت به .. فوقع حديثها ذاك من نفسى موقع الدهشة والعجب .

ولقد فسرت لى هذه الحادثة كثيرا مما لم أفهمه . فالمريضان



يعاقب المريض بالسجن ويرسل المجرم الى المستشفى للعـــلاج

اللذان رايتهما امام القاضي [illegible] يقفان موقف المتهم بجريمة المرض ، وقد حكم عليهما القاضي بالسجن والشغل الشاق .

مضى شهر — وكنت قــــد القنت كثيرا من لغة الحديث — فجاء السجان والمعلم ينبانني ان اولي الامر قد اجازوا ان يطلق سراحي ، مادمت قد لنفقت هذه الايام صحيح البــدن . على أن أقصد من فوري الى العاصمـــة ليراني ملك البلاد وملكتها ، ولان تاجرا في العاصمة سمع بأمري فأرسل يدعوني في ضيافته .

وقد جرى بيني وبين معلمي حديث أنبأته فيه باني رجل فقير ، فاجابني بأن الفقر في بــلادهم جريمــة كبرى ، وانه يعلم انني فقير وان محكمه تألفت بالفعـل لتنظر في امر عقوبتي من اجــل فقري لولا ان الملكة توسلت الى الملك في العفو عني لانهـــا كانت تحب أن تراني حين علمت أن لي بشرة شقراء وعينين زرقاوين .

استيقظت في صباح اليــوم التالي وغادرت غرفـــة السجن لاركب عربة كانت تنتظـرني في الطريق لتحملني الى عاصمـــة البلاد ، ولن اقص على القــارىء تفصيل هذه الرحلة الشياقة ، غير انى اعيد القــول في النظافة والجمـــال اللذين شـهدتهما اينمــا حللت ، فـلم تقـــع عيناى الا على اجسام صحيحة جميلة رشيقة .. وقد أتيح لي اثنــاء الطـريق ان اتحـــدث الى بعـض المتخـــرجين في جامعــاتهم ، فسألتهم عن طائفة مما شهدته وبخاصة عما قصدوا اليه من اقامة التماثيل المخيفة في الطريق المؤدية الى بلادهم ، فانبأوني بأنها اقيمت هنالك في عصر سحيق في القـــدم ، وان تقاليدهم كانت تفرض أن يؤخذ أقبح من يرونه خلقة واضعف المرضى بنية ، فيذبحونهما ضحية لتلك التماثيل ، وذلك لحفــز أهل ارون على نشدان الصحة والجمال ، ولكنهم الان يحمدون الله ان بلغوا حدا بعيدا جدا من الصحة الموفورة والجمال الرائع فلم يعــودوا يذبحــون ما كانوا يذبحون من ضحايا .

وســألتهم عن متحف الالات القديمة ، وعن علة تدهور الفنون

والعلوم والمخترعات فى بلادهم ، فاجابونى بأنهم منذ اربعة قرون كانوا قد بلغوا ما بلغتــه اوروبا اليوم من التقدم الآلى ، بل كانوا قد جاوزوا ما بلغتــه أوروبا فى كثير من الصناعات ، ولكن حدث ان استاذا عظيما اخرج كتــابا بارعا يلفت النظر (وسيأتى ذكره فيما بعد) وقد اقام فيه الدليل القاطع على استخدام الآلات لابد منته الى تدمير الانسانية وتحطيمها وقد بلغ الاستاذ من قوة الحجة فى هذا الكتاب أن تبعته الامــة باسرها ، واخذوا يمحـــون من ارضهم ما بها من آلات ، وحرمت قوانينهم ان يدخل انســان اى اصـــلاح على آلة من الآلات ، وبدءوا ينظرون الى من يحمل آلة معه كن يحمل وباء معــديا ينبغى ان يقاوم وينبذ .

ادركنا العاصمة فألفيتهـــا مدينة جميلة تزدان بالاشــجار والازهار ، واسترعى نظرى مرة اخرى ماشاهدته فى اهلها من جمال جذاب وخلق حلو كريم .. وقد استقبلنى فيمن استقبلونى ذلك التاجر الذى دعانى لضيافتــه ، واخــذنى الى داره حيث زوجه وابنتــاه ، ولم تمض ســاعة حتى اقبل علينا رجل نحيل ذو لحية ســوداء ، فاصطحب رب الدار الى غرفة مجاورة لنا ، ولم ألبث حتى سمعت مضيفى يئن ويبكى ، فأخذتنى الدهشــــة والعجب ، ولــكن الزوجـــة والفتاتين شرحن لى الامر ، فقلن ان ذلك الزائر القادم هو طبيب الاخلاق الذى يقوم من اعــوج خلقه ، واخذن يبسطن لى بعض عاداتهم السائدة مما ســأتناوله بالشرح فيما بعد ..

فهم يرون أنه اذا اصــــابت احدهم علة فى جسده قبــل أن يبلغ السبعين ، فجزاؤه المحاكمة وازدراء الناس ، وان توقـــع عليه عقوبة تقسو أو تهون حسب اشتداد المرض او خفتــه . اما ان ارتكب احدهم التزوير او احرق منزلا او سرق شيئا او مايشبه هذا ، فليس ذلك عندهم اجراما ولكنه نقص خلقى يحتــاج الى علاج فى مستشفيات الدولة او فى داره ان كــان يســـتطيع الانفاق . وهنالك طبقـــة من الاطباء يسمون « بالمقومــين »

وظيفتهم اصلاح الخلق السقيم. وقد اتقن هؤلاء المقومون دراسة الحالات النفسية التى تؤدى الى سوء السلوك .. وكما نعترف نحن الى اطبائنا بكل أمراضنا الجسدية ليتواوا علاجها، فكذلك هم يعترفون الى مقوميهم بكل ما فعلوا مما يشين الخلق . فهم ونحن على طرفى نقيض: نحن نعترف بالامراض الجسدية ونكتم الامراض الخلقية ونخفيها عن الناس، أما هم فيكتمون الامراض الجسدية ما استطاعوا ولا بأس عندهم من اعلان الامراض الخلقيه فى الملا . فالواحد منا يقول لاصدقائه : لقد أصابنى الليلة برد خفيف ، أما واحدهم فيقول لاخوانه : لقد سرقت اليوم جوربا وأريد عرض الامر على مقوم ! .

ولعل اعجب ما يستوقف النظر فى محاكمهم ، انهم يحاسبون المرء على سوء حظه (١) حسابا يختلف يسرا وعسرا باختلاف درجة سوء الحظ الذى أصاب المتهم .. ذهبت يوما لارى احدى المحاكم فالفيت القاضى يحاكم رجلا لان زوجه ماتت وخلفت له أطفالا ثلاثة سن اكبرهم ثلاث سنوات ، ولقد ادهشنى أن توجه المحكمة قارص اللوم الى من تولوا الدفاع عن المتهم فى جريمة ظاهرة كهذه !. ومما قاله القاضى تبريرا لحكمه الذى قضى به : نريد أن تكون احدى قواعد الاخلاق فى ارون أن يحترم الانسان بمقدار ما يواتيه حظه (٢) ، على أن الدولة لا تبيح لفرد أن يبلغ من سوء الحظ حدا مسرفا غير معقول .. ثم التفت القاضى الى المتهم وقال : ان موت زوجك حظ بالغ السوء ،

---

(١) — احب أن الفت نظر القارىء الى التهكم هنا — وان يكن ظاهرا — فسيدهش القارىء من قوم يحاسبون الناس على سوء حظهم ، ولكنه ان فكر قليلا يجد أن ذلك ما نعلمه نحن ، فالفقير عندنا مسئول عن سوء طالعه !!

(٢) ما أبرع هذا التهكم من الكاتب على الحالة السائدة بيننا وهى أن صاحب الحظ السعيد هو وحده الجدير باحترام الناس !!

والطبيعه من شأنها أن تقرن مثل هذا الحظ الانكد بأشد الجُزاء، ويجب أن يسن القانون البشرى على نسق القوانين الطبيعية ، ولذا فانت فى رأيى تستحق السجن والشغل الشاق ستة شهور ، ولكنى سأخفف العقوبة الى ثلاثة أشهر فقط ، لانى علمت انك قد تحوطت لسوء الحظ وأمنت على حياة زوجك بمبلغ لا بأس به .

ولعل اعجب قضية رأيتها عند هذا الشعب العجيب قضية رجل حوكم لاصابته بالسل الرئوى ، فدافع المريض عن نفسه بأنه ورث هذا المرض عن ابيه ، وبأنه اصيب بحادثة مروعة فى طفولته اضعفت بنيته ولكن القاضى أجاب فى حدة بأنه لن يلقى بالا الى مثل هذه الاعذار السخيفة الباطلة التى ترد التبعة على الاسلاف (١) ،لانه ان قبل ذلك لامكن أن ترد الجرائم كلها الى الخلية الاولى ، بل الى السديم الاول الذى نشأ منه الكون . وقال القاضى انه يأسف ان يرى شابا فى الثالثة والعشرين يتقدم اليه متهما بمثل هذه الجريمة الشنعاء وانه لولا أن أرض أروون قد الغت عقوبة الاعدام لقضى عليه بها ، اذ لو سمحت الدولة ببقاء الامراض فى أهلها لظهرت على الفور طائفة الاطباء وطائفة تجار العقاقير ، وهما طائفتان تجران البلاد الى خطر مستطير .. اما ان دافع المريض عن نفسه بأنه ولد مريضا او نشأ فى طفولته هكذا وهو لذلك غير مسئول ، لاجابة القاضى بانه سواء كان المرض من خطأ المريض أو من خطأ سواه ، فهو على كل حال خطأ استقر فيه وواجب الدولة أن تمحوه .. وقضى القاضى أن يسجن الرجل وان يكلف بالعمل الشاق مدى حياته ..

---

(١) لاحظ ان الكاتب يتهكم هنا من غفلة الناس على هذه الارض ، حدث بهم أن تحاكم المجرمين وتحملهم مسئولية اجرامهم مع فى اغلب الحالات قد ورثوا اخلاقهم من آبائهم

هكذا كان حكم القضـــاء فى المرضى والضعفاء ، ويعتقد اهل ارون ان تلك هى الوســـيلة الوحيدة لمنع انتشـــار الضعف والمرض فان ظن ظان ان هذه قسوة جائرة فقد فاته ان عشرة امثال هذه القسوة كانت ستنزل بالناس بسبب العدوى ان لم يمح امثال هؤلاء ... ان اهل ارون لا يرون غرابة فى ان يحاكم الناس من اجل حظهم المنكود وان يجازوا خير الطالعهم السعيد ٠ ويبررون ذلك بأن تلك هى حالة الانسان الطبيعية ومن الحمق ان تعترض بقولك ان الانسان ليس مسئولا عن سوء حظه ، اذ ما هى المسئولية ان لم تكن عبارة عن استعداد للفـــرد للجواب على اسئلة يوجههـــا المجتمع اليه عن حياته وعمله ، تلك هى سنن الطبيعة ولن تجد لها تبديلا . فماذنب الحمل ترعاه وتكلاه لتذبحه وتاكله ؟ ذنبـــه سوء حظه الذى جعـــله شيئاياكله الانسان ... ولمـــاذا يكافأ ابن الغنى صاحب الملايين ؟ لان من صالحنا ان نحتفظ بما يملكه فراينـــا الوســـيلة الى ذلك ان نحتفظ للنـــاس بما يملـــكونه ، ولولا ذلك لمـــا ابقينـــا لصاحب الملايين على ملايينـــه ســـاعة واحدة .. الحقيقة التى لاريب فيهـــا ان الملكيـــة سرقة وكـــل الناس لصوص ، وقد ارادوا ان ينظموا السرقة فيما بينهم .. الملكية والزواج وسائر القـــوانين هى بمثابة الشكيمة التى تضبط الغرائز كما يضـــبط الســـد ماء النهر ، فـــويل لمن يثلم ســـدود النهر حين يكون النهـــر فياضا بمـــائه

واى غرابة فى ان يحاكم اهل ارون المريض وسيىء الحظ ؟ اننا لانتردد فى نبذ المريض بالحمى الصفراء ولا نســـمح له بالدخول فى ارضـــنا ، ونحصر المجنـــون فى بيمارستان ولا نأذن له بالخروج ... اننا نقتل الثعبان لا لشيء الا لانه ثعبان يعـــرض حياتنـــا للخطر ، وكل جريمته انه لم يكن حيوانا مأمون العـــواقب . نحن نقتله ولا نرى فى قتله اجراما وان كنا قد نعطف عليه .. . ولقد يعترض معترض بان القانون ظالم ان هو حاسب المرضى بمرضهم ، لان المرض نتيجة لاسباب فوق مستطاعهم ان يسيطروا عليها ؟

هذا صحيح . ولكن المريض بالسل مثلا كالفاكهة المعطوبة ، ليست مسئولة من عطبها ، ومع ذلك فلا تتردد فى قذفها ليسلم الباقى

ان اهل ارون ينظرون الى الموت نظرة اخف من نظرتهم الى المرض ، فهم لايكترثون بالاجال المحتومة مع علمهم بان الحياة قصيرة الامد .. فان اسلم احدهم الروح احرقوا جسده وذروه مع الرياح وهم لايجيزون ان تقام التماثيل للعظماء ، اذ رأوا ان التماثيل التى تكدست على مر العصور قد ازدحمت فى الطرق والميادين ازدحاما يعطل سهولة السير .. ومن تقاليدهم الا عزاء فى ميت والا يلبس احد شعار الحداد

واما دياناتهم فهى عبادة الاوثان ، ولكنها وثنية تقوم على هدى من العقل السليم ، فتراهم يشخصون فى تماثيلهم بعض الصفات (١) كالعداله والقوة والامل والخوف ولالهتهم تلك شغف بشئون البشر ، وهم يغضبون اذا اهمل الناس عبادتهم ، والعجيب فى امرهم انهم يعاقبون من اجل ذلك الاهمال اول من يصادفونه ، ولا يأبهون كثيرا ان يقع العقاب على من وقع منه الاهمال . وهم يعاقبون الناس اذا اخطأوا فى حقهم عن جهل وغير عمد ، شأنهم فى ذلك شأن القانون الانجليزى يفرض انه محفوظ معلوم عند الجميع

وانى لاذكر ذات مرة كنت اتحدث الى فتاة ، فكانت تشرح لى دياناتهم تلك ، فلما عرضت عليها عقائدنا ، ضحكته وقالت : واى خلاف بيننا وبينكم ، ان الهكم هو تعبير لراى الانسان عن الصفات المحمودة ، فهو عندكم حكمة وقوة ، وقد شخصتم هذه الصفات فيمن سميتموه الله ..واحسب ذلك انتقاصا من الالوهية السامية ، ولعلنا نكون اقرب الى الحق ان عبدنا الله فى

---

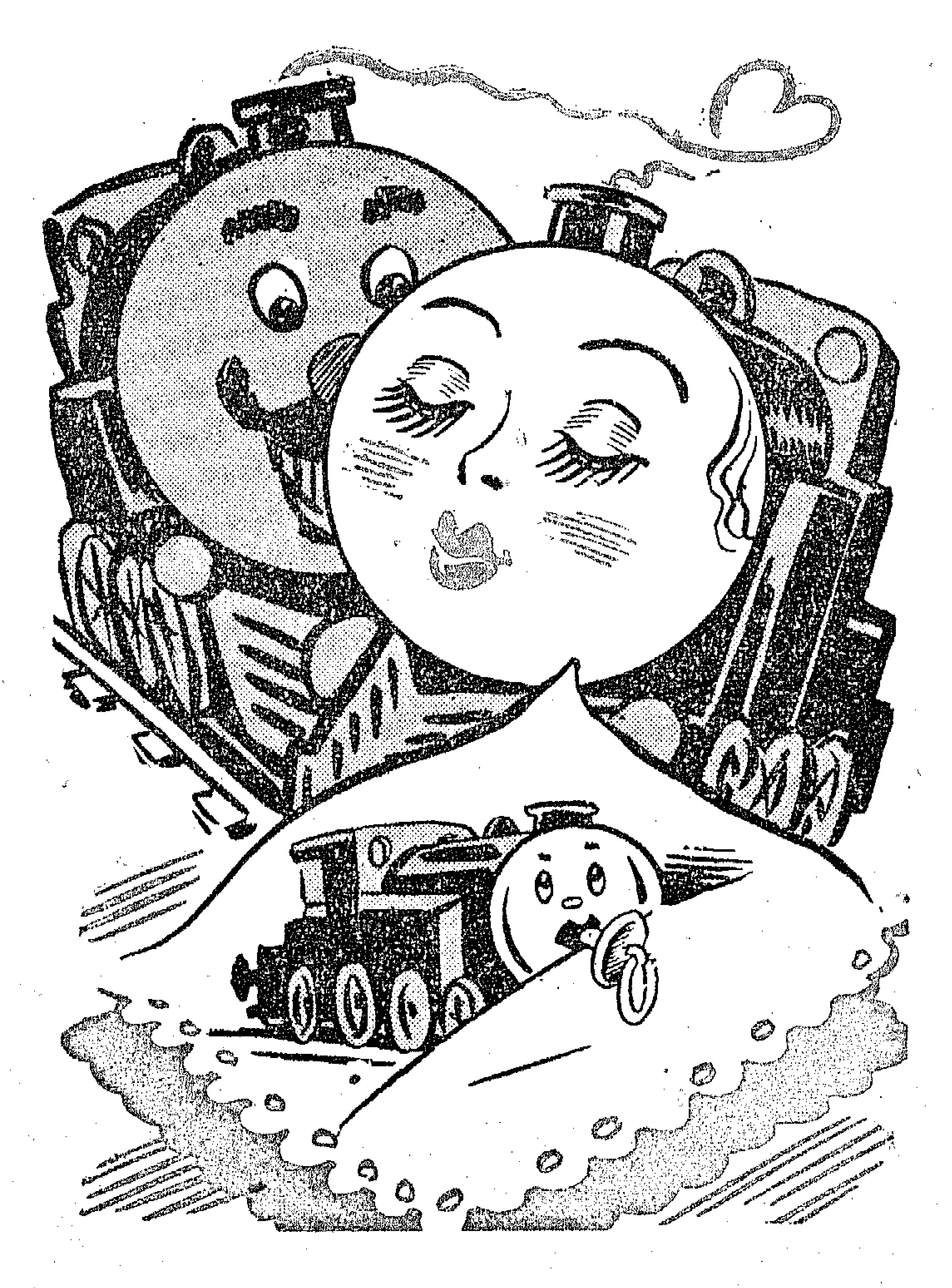
(١) احب ان يلاحظ القارى ان ذلك تهكم بعقيدة الناس على هذه الارض اذ الكثرة الغالبة من رجال الدين لاعهم الله الاعلى انه مشخص على نحو ما

كل ماتصادفه في الوجود ، فنعبده في آيات الفن وفي مظاهر الطبيعة ، نعبده في الصورة الجميلة وفي التمثال الرائع وفي الحقل والسحاب والبحر ، نعبده في الانسان ، في الطفل والمرأة والرجل ...

وينكر اهل ارون خلود الروح ، ورايهم في ذلك ان العقيدة في خلود الروح تغرى الناس باهمال هذه الحياة الدنيا وقد تدعوهم الى الاستسلام للفقر والمرض

ومن اعجب عقائدهم ان روح الانسان كانت موجودة قبل ميلادها في عالم روحاني ، فلما ارادت ان تهبط الى هذه الدنيا انطلقت توسوس الى زوجين ان يتلاقيا لينسلاها في جسد ، مع ان الزوجين لو تركا لرايهما لما اضافا الى العالم انسانا جديدا .. من اجل هذا ترى حكومة ارون حريصة على ان تخلى الاباء من تبعة الابناء ، فشهادة الميلاد عبارة عن اقرار بأن الوليد كان في عالم الروح ، وانه هو الذى دبر مؤامرة مجيئه الى هذا العالم ، فأساء بذلك الى والديه وحرمهما لذة الحياة وسعادتها .. والوليد هو المسئول عن نقصه الجسماني الذى ستحاسبه عليه الدولة ، والعرف عندهم ان يتلى هذا الاقرار في اليوم الثالث بعد الميلاد على مسمع من الوليد ، فان صاح كان ذلك اقرارا منه بالقبول ، ولم يعد من حقه ان يعارض القانون ان اراد محاكمته على مرض او تشويه

وفيم اعتراضهم ؟ انهم يقولون ان الارواح قبل ولادتها كانت تعيش في مدن وتأكل وتشرب كما يفعل البشر ، وقد كانت تنعم بالسعادة الكبرى لان حظوظهم جميعا تتراوح بين حدين معقولين ، فلا تسرف في الزيادة ولا تفرط في النقصان ، ومع ذلك فقد يرغب بعض تلك الارواح في ان يلبس اجسادا كأجسادنا فيأخذ في السعي الى المجيء الى هذه الدنيا مع أن هذه الدنيا لا تعجب الا الحمقى والمغفلين . فاذا اراد روح ان يهبط الى الارض ذهب الى قاض يتلو عليه شروط الحياة في الارض قبل ان يقدم على فعلته فيقول :



اننا لن نشهد قاطرتين تتزاوجان وتتناسلان فتلدان قاطرة صغيرة تلعب أمام الحظيرة

ان اهل الارض لاحق لهم فى اختيار الاجساد التى يضعون فيها ارواحهم ، بل ان هذا خاضع للمصادفة العمياء وحدها ، وان الابوين اللذين سينسلانه لاعلم لاحد بهما فقد يكونان غنيين او فقيرين : مريضين او صحيحين ، رحيمين او قاسيين . وعلى الروح اذا ماولد ان يضع نفسه تحت رحمة ابويه عدة سنوات ، مع انه لايدرى عن بيئتهما او عن نصيبهما من سلامة التفكير شيئا

فكر ايها الروح فى احتمال ان يلدك ابوان شقيان فيربيانك على الشر والرذيلة ، او ابوان احمقان فينشئانك على الكذب والباطل ، او ابوان يظنانك ماكا لهما لاملك نفسك ، او ابوان لايفهمانك فيحسبانك عاقا لاتكن لهما الحبّ ، او ابوان ينظران اليك نظرتهما الى الوحش الصغير يجب ان تخضد شوكته وهو فى حجر الطفولة خشية ان يشب وله مشاعر خاصة به فيقض بها مضجعهما . . . تذكر ايها الروح ان تكوينك سيخضع للصدفة المحضة ولن يكون لك راى فى تنشيء نفسك .(١)

اليست هذه العقيدة عند اهل ارون تصويرا دقيقا للحياة ؟ ان العلاقة بين الاباء والابناء على اسوا ما تكون العلاقات . لماذا لايعامل الاباء ابناءهم كما كانوا يحبون ان يعاملهم آباؤهم ؟ هذه بديهية سهلة ولكنها عسيرة التنفيذ ، ولعل العظماء وحدهم هم القادرون على تنفيذ البديهيات ! اليس معظمنا يسعد مع غير آبائه اكثر مما يسعد بينهم . . . الصورة المثلى للحياة ان تسود المحبة الصحيحة التى لارياء فيها بين الاباء والابناء اما ان اسرف الوالد فى انانيته فليتوقع كره ابنائه . وواهم من يظن ان كلمة « والد » فى نفسها طلسم يولد فى قلب الابن اعاجيب الحب !

واحسب المال سببا لكثير من الشقاء بين الوالدين والابناء . فلو ترك الابناء ليكسبوا قوتهم فى سن باكرة لشعروا باستقلالهم

---

(١) انظر كم بلغ التشاؤم واليأس من الكاتب فى اصلاح العالم.

وصلح امرهم ، ولكن المجتمع يبطىء فى تعليمهم ، فيكبر الأبناء وتكون لهم حاجات ورغبات لايجدون مالا لتحقيقها .. وفيم هذا التلكؤ فى تربية الابناء ؟ لان آباءهم يبعثون بهم الى مدارس اخذت على عواتقها ان تعلم الطالب كيف يصبح عديم الفائدة ! !

لماذا لاتكتفى الدولة بتعليم القراءة والكتابة والحساب ، ثم تترك الابناء بعد ذلك يسعون وراء كسب عيشهم ؟ ان الاباء اذا راوا ابناءهم يعاونون بكسبهم على سعادة الاسرة وجدتهم يكثرون النسل بدل وأده

لقد تنبه اهل ارون الى ذلك ففرضوا ضريبة على من يترك ابناءه الى سن العشرين دون ان يزج بهم فى عمل يكسبون منه العيش . وهم بهذه الخطة الرشيدة يفيدون المجتمع بانتاج هؤلاء الابناء ، ويخففون الضغط عن الاباء ، وبذلك يبذرون بذور الحب بين الوالد والولد

ان اهل ارون يحبون الانتاج الكثير ويشجعون عليه ، وهم يعفون كثير الكسب من دفع الضرائب ... المال عندهم رمز يدل على ان صاحبه ادى واجبه وخدم المجتمع .

لقد كنت قبل دخولى ارض ارون اومن ان اصحاب المال مارقون على المجتمع وانهم ليسوا من اصحاب الجنة ، ولكنى بعد زيارتى لارون ايقنت ان المعدمين ابعد الناس عن نعيم الفردوس ان الناس فى ارضنا يقابلون المال بالثقافة فيقولون ان من ينفق ايامه فى جمع المال لن يتاح له ان يحصل قدرا موفورا من الثقافة .. الا ان هذه لاكذوبة الاكاذيب ! اى ثقافة اعظم من ان يعتمد المرء على نفسه فى كسب قوته ؟ وماذا تفيد الثقافة للفقير المفلس سوى ان تزيده شقاء الى شقاء ؟

وقد كثر اللجاج بين اهل ارون على موضوع الكهولة والشباب ، أيهما أحق بالسلطان ؟ فيقول انصار الشباب ان وضع الامر فى أيدى الكهول يستحث الشبان الى الاسراع فى خلع ثوب الشباب

مع انه اخلق بالناس ان يحملوا الكهول على اصطناع الشباب ويسود الان عندهم راى ان يحكم كل من الفريقين اسبوعا ، والسن الفاصلة هى الخامسة والثلاثون ، وبذلك يتاح للشابان ان يؤدبوا الكهول !

اما الجامعات فى ارون فأول مايستوقف النظر فى نظامها انها تعنى بالجانب النظرى دون سواه ، فهم يؤثرون ان يعلموا الطلاب امورا فرضية بحتة على ان يشرحوا لهم طبائع الاشياء المحسوسة التى يرونها حولهم فى الحياة (١) ، وتراهم يلقنونهم لغة لم تعد تنطق بها السنة الاحياء بل كل شأنها انها كانت لغة زمن ذهب وانقضى . هم يملاون انفس عهود الحياة بمثل هذه الدراسة النظرية ، فيهدرون بذلك مجهودا بشريا كان يمكن ان ينصب على مشكلات الحياة الحاضرة ، وليت هذه الدراسة على عقمها تصادف هوى فى نفوس الطلاب بل انهم يساقون اليها سوقا .

ومن المظاهر العجيبة التى يلحظها الزائر عند اولئك القوم انهم يمقتون اصالة الفكر ، فهم يتوقعون من كل فرد ان يجرى فى تفكيره على نسق سواه ، ويعدونه جنونا ان تشذ فى راى او عمل . فان عارضتهم بقولك ان التنافس بين الناس فى التفكير يؤدى الى التقدم والرقى اجابوك انهم يتمنون ان يظلوا حيث هم . فمن تعن له فكرة ينبغى الا يذيعها فى الناس الا ان وثق انها ستلقى منهم قبولا ورضا . ومن اشر المرذول ان يسبق انسان عصره الذى يعيش فيه او يتلكأ من دونه ، فان كان فى مقدورك ان تجذب عصرك معك فبها ، والا فاكتم رأيك فى صدرك (١) ... ان الصحف اليومية والمدارس على اختلافها تشل النبوغ وتشجع التوسط ... انهم على نقيض الاثنيين الذين

---

(١) هذه سخرية من نظم التعليم عندنا

(٢) التهكم هنا ظاهر وغرض الكاتب واضح

كانوا يرحبون بكل راى جديد ،اذ تراهم وكأنما حسبوا عقولهم كالمحاريب المقدسة اذا استقرت فيها فكرة فحرام ان تعارضها فكرة اخرى !!

لقد اشرنا فيما سبق الى ان استاذا عالما اخرج كتابا عن الآلات وخطرها الداهم على الانسانيه ، وكان قوى الحجة فى كتابه بحيث حمل الاهلين معه فى الراى فحطموا آلاتهم، وحرموا استخدامها . ولما كان هذا الكتاب عميق الاثر فى حياة ارون ، كان لابد لنا من تلخيص مافيه :

مرت ازمان كانت الارض فيها خلوا من كل حيوان ونبات ، ولم تكن سوى كرة ملتهبة اخذت قشرتها فى البرودة شيئا فشيئا . فلو شهدها انسان حينئذ لما صدق ان كائنات لها عقول ستتطور يوما من ذلك اللهب المتاجج ! ... ولكن ذلك ماحدث فى مجرى الزمن . افيستحيل اذن ان يتطور العقل الى شيء جديد لاندريه ولا نتصوره ؟ .. اذا امكن ان يتطور عقل الحيوان من النبات ، فماذا يمنع ان يتفرع كائن عجيب من عقل الانسان ؟ انه لحمق وغباء ان نرى كل هذه المراحل التى تطورت فى مدارجها الحياة ، ثم نزعم ان المرحلة الحيوانية هى غاية الشوط ! ..

ولو امعنت فى النظر الى الاشياء التى حولك لرأيت بينها شيئا يشير من طرف خفى الى انه هو الجنس الذى ستكتب له السيطرة ... وذلك هو الآلة ! انظركم تقدمت الآلة فى اعوام قلائل تقدما سريعا على نحو لم تعهده مملكتا النبات والحيوان . ان الآلة تتطور كل دقيقة فماذا عساها ان تكون بعد ملايين السنين ؟ اليس خيرا لنا ان نقمع الشر فى اوله ؟

ومن ذا الذى يزعم ان آلة البخار مثلا لا ادراك لها ؟ فليحدثنى الزاعم أين يبدا الادراك واين ينتهى ؟ من ذا الذى يستطيع أن يرسم الخط الفاصل بين الادراك واللاادراك ؟ ماالفرق بين فنجان نمسك فيه البيضة ، وبين القشرة التى تصنعها

الدجاجة لتمسك بها بيضتها ؟ :هذه آلة صنعت فى الداخل وتلك آلة صنعت فى الخارج ولا فرق بين الآلتين . . .

ان كل شيء فى عالم الاحياء يبدو على شيء من الادراك . فهنالك ضرب من النبات يأكل بعض الحشرات ، فاذا ما وقعت حشرة منها على وريقاته أطبقها عليها وامتصها ومثلها ، أما ان سقطت عليها قطرة ماء او ذرة من حصباء فانه لايأبه لها . . فاذا لم يكن هذا ادراكا فأين يكون الادراك ؟ . فان قلت ان النبات لاعقل له وانه ينمو مجبرا مادامت البيئة الملائمة لنموه قد توفرت حوله من تربة وهواء ومناخ ، شأنه شأن السفينة لايسعها الا ان تسير مادام الهواء يدفع الشراع . ولكن اليس الطفل كذلك مجبرا على النمو مادام الطعام واللباس الملائمان قد توفرا له ؟ اليس كل شيء فى هذه الدنيا كالساعة ، يسير اذا اعدت له العدة الصحيحة ،ولا يسعه الا أن يسير ؟

ضع نبات البطاطس فى غرفة مظلمة واثلم جدارها ثلمة ينفذ منها الضوء ، تر النبات قد زحف بفروعه على الارض ثم صعد على الجدار حتى يبلغ نافذة الضوء فيرسل فروعه خلالها . وان صادفت الفروع اثناء زحفها شيئا ملائما لغذائها اكلته ومثلته . . . فأين الادراك ان لم يكن هذا ادراكا سليما صحيحا يعلم ماذا يريد ويسعى الى الحصول عليه ؟ لعل ماحدا بالانسان ان يجرد النبات من الادراك والعاطفة انه رأى البطاطسة مثلا لاتصيح ولا تئن اذا قطعها او غلاها فى الماء ؟ ! وان قيل ان البطاطسة تمد جذورها وتلقم طعامها على نحو آلى لا ادراك فيه ، فما ادرانا الا تكون عواطف الانسان وافكاره وسائر ظواهره الانسانية نتيجة لحركة ذرية آلية ، اونتيجة لافراز هذه الغدة اوتلك؟

اما أن نعترف بان للاشياء ادراكا ، وبذلك نعترف ضمنا أن الالات ادراكا لانفهمه . واما ان نقول ان الانسان وحده يتمتع بالادراك ولكنه هبط من اصول لا ادراك لها ، فتكون النتيجة المنطقية ان تتطور الآلات — التى قد يكون لها

ادراك اليوم ـ الى شيء جديدله فوق ما للانسان من ادراك وفكر .. واذن فيابني آدم سارعوا بتحطيم الآلات خشية ان تسبقكم بعد قليل فى مضمارالحياة !

انظر الى عين الانسان . اليست آلة يستخدمها المخلوق الصغير الكامن وراءها ؟ عين الميت هى كعين الحي سواء بسواء ، فليست هى التى تعجز عن النظر ، ولكنه ذلك الكائن الكامن وراءها هو الذى اصابه العجز ... فاى فرق بين هذه الآلة المركبة فى اجسادنا وبين المنظار المقرب او المكبر نشهد به الشموس والاقمار وصغار الديدان ؟ أليس لدينا من الآلات مايحسب الارقام ادق مما نفعل بعقولنا ؟ فحيثما احتاج الانسان فى عمله الى الدقة طار الى الآلة لانها تفضله فى الدقة ولا تعرف الخطأ والزلل ؟ والآلة فوق ذلك لايصيبها النصب والنعاس، فهى ابدا تقتدر على العمل ،وهى ابدا موفورة النشاط صبرها غير نافد . الآلة اقوى من اشداء الرجال ، والآلة اسرع فى طيرانها من الطير ، والآلة تسير على سطح الارض وتغوص تحت اغوار الماء ! !

بل فكر فى امر الانسان قليلا . انه مليء بألوف الالوف من الطفيليات حتى ان جسد الانسان يكاد يكون مجموعة من تلك الطفيليات . فهى اذن التى تعينه على السمع والنظر وسائر الملكات . فلماذا لاتعد الانسان حيوانا طفيليا يعين الآلة على السمع والنظر وما اليهما ؟

ان الآلة البخارية تستهلك الطعام كما يستهلكه الانسان ولها نبض ودورة كما للانسان . قد يقال : ولكن الانسان ادق تركيبا ونحن نجيب ، اعط الآلة نصف الزمن الذى اتيح للانسان ، وانظر كم تبلغ من دقة التركيب،

انى لارى الانسان يعمل بنفسه على خلق خلفه فى سيادة الارض ! انه مايفتأ يزيد من دقة الآلة ونظامها وقوتها ، ولست اشك

فى ان الامر سينتهى بالآلة الى ذكاء خارق وعندئذ تعلو فى سلم الكائنات وتسود

كانت الآلات فيما مضى تأكل بواسطة الانسان او الحيوان ، اذ لم تكن لها معدات لهضم الطعام . فكان المحراث والفأس والعربة - مثلا - تستغل معدة الانسان او الحصان فى هضم ماتريد لنفسها من قوت . فلابدان ياكل الانسان لحما وخبزا ولا بد ان ياكل الحصان علفا ونجيلا ، ليتحول القوت فى ذلك او فى هذا الى قوة ، ثم لتنصب القوة على المحراث او الفأس او العربة فتحركها . أو ليس معنى هذا ان اللحم والخبز والعلف ان هى الا طعام تقتات به الآلة فى معدات غيرها ؟

ثم انتقلت الآلة فى ذلك خطوة فى سبيل التقدم فأصبحت صنوف منها قادرة على اكل طعامها بنفسها ، فكانت هذه خطوة فسيحة دنت بها - ان لم اقل من الحياة - فمن حالة تشبه الحياة وان اختلفت عنها فى الظواهر ، كما يختلف النبات عن الحيوان . فان يكن الانسان ممتازا - اذا قيس الى الآلة - فى بعض نواحيه ، فلا يمنع هذا أن تكون الآلة سائرة فى سبيلها نحو السيادة عليه ، وتلك سنة الطبيعة فى تطور الاشياء ، أفلا ترى بعض الحيوان يفوق الانسان فى بعض جوانب الحياة مع انه سابقها فى سلم التطور ؟ فيمتاز النحل والنمل عنه فى التنظيم الاجتماعى ويمتاز الطير بطيرانه والسمك بسباحته والجواد بقوته وسرعته والكلب بتضحيته بنفسه ؟

قال لى بعض من حدثتهم فى موضوع الآلات واحتمال رقيها على الانسان : لن تكون الآلة شيئا حيا او شيئا يفوق الحياة ، لانها لاتنسل .. . فان كان هؤلاء المعترضون يريدون بذلك أنها لاتتزاوج ، أعنى اننا لن نشهد قاطرتين تتزاوجان وتتناسلان فتلدان قاطرة صغيرة تلعب أمام الحظيرة . فانا اوافقهم فى الراى بغير شك .. ولكن من زعم لهؤلاء القوم أن الآلة ستظل على حالها أبد الآبدين ؟ الا يختلف الحيوان عن النبات اختلافا شديدا ومع


بمناسبة افتتاح الموسم الدراسي
قصص للجميع
عدد خاص من
قصص للجميع
يهم الطالبات والطلبة وكل من يهتم بالطالبات والطلبة
١٣٦ صفحة
١٥ قصة
٥ قروش

ذلك فلكل منهما طريقة خاصةبه للتزاوج والتناسل ؟ فهل عقمت الطبيعة ولم يعد في جعبتها النسل سوى هاتين الطريقتين : طريقة النبات وطريقة الحيوان ؟ لماذا لا تفرض ان الطبيعة لاتزال خصبة الابداع ، وانها ستبتكر للالات وسيلة ثالثة لم تطرأ على عقل الانسان ؟

هذا على فرض أن الآلة لا تنسل كما ذهب هؤلاء ، ولكن الآلة تنسل بالفعل آلة أخرى . وان لم يكن الامر كذلك فقل لي بربك ماذا يصنع الآلة الا آلة غيرها ؟ ستقول : ولكنه الانسان هو الذي يعينها على ذلك . وهذا صحيح .. ولكن أليست الحشرات هي التي تساعد النبات على التناسل ، ولولاها لفنيت أسر من النبات بأسرها . ايزعم زاعم ان البرسيم الاحمر لاينسل لان النحلة وحدها هي التي تمكنه من ذلك ؟ لا ، ولكننا نقول ان للبرسيم نسلا وان النحلة جزء من جهازه التناسلي ... بل لماذا نذهب في القول بعيدا والانسان نفسه يستعين على النسل بجرثومة ليس بينها وبينه شبه ، ومع ذلك لايجرؤ معترض ان يقول ان الانسان لانسل له ، بل كل ما يقوله هو ان للانسان نسلا وان تلك الجرثومة جزء من جهازه التناسلي .. . وان كان هذا هكذا فقل لي بربك ماذا يمنع ان يكون الانسان جزءا من جهاز الآلات التناسلي ، بمعونته تستطيع ان تلد وتنسل الوف الالوف من مختلف الآلات ؟

ولعلي اسمع قائلا يقول : ولكن الآلة ان نسلت فلا تنسل آلة مثلها . فالابرة - مثلا - لاتلد الابرة ، ولكن والدة الابرة آلة اخرى لاوجه للشبه بينهما - وهذا صحيح كذلك ، ولكن ادر وجهك الى الطبيعة وانظر - ألست ترى كثيرا من الاحياء لاينسل اشباهه ، لا بل فئة قليلة جدا من الاحياء هي التي تلد اشباهها . أما بقية الاحياء فتلد شيئا فيه القوة لان يكون شبيها بآبائه : فالفراشة تضع بيضة فتكون البيضة سرفة فشرنقة ففراشة

لست اشك فى أن الآلة قد اصطنعت لنفسها جهازا للطعام وستسرع الخطى فى ان تبتكر لنفسها جهازا راقيا دقيقا للتكاثر قبل ان يمضى من الزمن أمد بعيد ! !

ويجوز جدا أن تختار الآلة فى تطورها ان يختص بعضها للنسل دون بعض ، وليس ذلك عجيبا ، فالنحل والنمل انما يسلكان هذا السبيل ، ينسل بعضها ويسعى بعضها الآخر لسائر جوانب العيش

وقد سمعت رجلا يقول : ان كان للالة البخارية قدرة فليس لها ارادة .. ولكن هل ترى - أيها الصديق - فى العالم كائنا له ارادة حرة سوى الله ؟ . . ان الانسان نتيجة محتومة لمجموعة من القوى والمؤثرات عملت على تكوينه قبل الولادة وبعدها : فهو خاضع لبيئته وبنيته ، اعنى انه متأثر بالظروف الخارجية كالآلة سواء بسواء ...

انك مهما قلبت النظر الفيت الآلة سائرة فى سبيل السيادة على الانسان بغير شك ، فالخير فى قمع الشر قبل استفحاله ... ولكم نخشى - ان تمسكنا بالآلات فى حياتنا - أن نسوى بين أفراد البشر ، فلا يعود فرق بين قوى وضعيف . اذ سيصبح فى مقدور الضعيف أن يخفى ضعفه ، فينقل هذا الضعف الى نسله وبهذا تنحط الانسانية انحطاطا لا ريب فيه ...

لهذه وغيرها من الاسباب ، استغنى اهل ارون عن الآلات وحطموها تحطيما لا رجعة لها بعده

وهذه ظاهرة عجيبة حقا فى اهل ارون تستدعى كل اعجاب ، وتلك انهم لا يترددون فى اتباع الراى الجديد ان قامت عليه الحجة ... ومن ذلك أن نبيا ظهر بينهم يبشر بمذهب جديد ، فلم يلبثوا أن اتبعوه حين تبين صدق ما يذهب اليه ، وان يكونوا قد عدلوا فيما بعد عن شدة الاستمساك بالرأى لما برهنت لهم الايام وطبائع الانسان ان ذلك الرأى فى حاجة الى التحوير ... وهاك صفوة ما بشر به نبيهم :

كان الانسان يقتل اخاه الانسان ويأكله ، ثم تعاقبت عليه الوف السنين فعلمته أن يستنكر القتل ... ولكني ادعوه أن يخطو في ذلك خطوة أخرى ، وهي أن يعف عن ذبح الحيوان ... قد يكون الحيوان مخالفا لنا في بعض أوجه حياته ولكنه شبيهنا بغير شك في معظم الوجوه ، فان كان من الخطأ يا قومي ان تقتلوا بني الانسان ، فمن الخطأ كذلك أن تذبحوا الحيوان لتأكلوه ... ان للحيوان - من طير وسمك وماشية - كل الحق في أن يعيش آمنا على حياته من اعتداء الانسان ..

نعم انا عليم بأن الحيوان لا يزال يقتل بعضه بعضا ، ولكن هل ينبغي ان نجاريه في ذلك ؟ اننا لو فعلنا هبطنا الى مستواه .. اننا لو قتلنا نمرا لانه فتك برجل أو امرأة ، كنا كذلك النمر سواء بسواء ، نحن الذين نزعم لانفسنا منزلة أعلى من الحيوان في الفكر والعمل !

اتبع الناس صوت الداعي أول الامر ، ثم تبينوا انهم اما أن يرتكبوا خطيئة قتل الحيوان واما أن يموتوا ، فآثروا الاولى على الثانية

وماذا تراهم صانعين ؟ انهم لو استمعوا لصوت العقل وحده لكانوا من الهالكين . فلا بد لمن يريد لنفسه اصلاحا من مزج العقل بالغريزة ... (١) فانه لم يمض بعد النبي الذي بشر بعدم ذبح الحيوان أمد طويل ، حتى ظهر فيلسوف ينشر رأيا جديدا ، وهو أن للنبات ذكاء وادراكا ، فمن الكمال الا نعتدي عليه فناكله ! يقول الفيلسوف :

اذا كنا نتهم النبات بالغفلة لانه لا يفقه من حياة الانسان شيئا ، فماذا يدري الانسان عن حياة النبات ؟ هل تستطيع أن تنبئني كيف تحول بذرة الورد قدرا من التراب وهبة من الهواء وحفنة من الماء الى وردة يانعة ؟ أنى لها اللون والاريج ؟ اجاءت

---

(١) هذا أساس هام جدا في رأي بتلر - وهو يرمز بالغريزة الى التقاليد - وقصده ان شرط الاصلاح هو اتساق العقل والتقاليد الموروثة

بهما من التراب أم من الماء ام من الهواء ؟ ستقول منها مجتمعة .. ولكن كيف ؟ خذ ترابا وماء وارني بكل ما بلغته من كيمياء كيف تصنع منها وردة زكية الرائحة .. . أتحسب الوردة بليدة غبية وهي تحول كتلة من الطين الى اوراق الورد ؟ أين الكيمائى الذى يصنع هذا او شيئا قريبا منه ... لا ! يجب أن نقر فى أذهاننا أن للوردة عملها وللانسان واجبه ، وليس من البلادة ألا يفقه احدهما من أمر الآخر شيئا

ثم انظر الى العناء الذى يلاقيه النبات فى رد اعدائه عنه . فهو يخدش ويجرح ويلدغ ويفرز الرائحة الكريهة والعصارات السامة ، انه يتخفى حينا ويخدع حينا آخر . أنظر الى هذه الزهرة مثلا تخشى أن تمتص عصارتها الذبابة الخبيثة ، فتلف أوراقها على هيئة ذبابة لكى توقع فى وهم الذباب العابر انها زهرة امتصت ولم يعد فيها رجاء ! ... ان لم يكن هذا ذكاء فأين يكون الذكاء يا أعداء النبات ؟

حسبى هذا القول ياقومى لادلكم على أن النبات ضرب من ضروب الحيوان أطلقنا عليه اسما آخر . فاذا كان خطيئة من الانسان ان يقتل الحيوان ، فخطيئته مثلها أن تقتلع النبات وتأكله .. . وما يجوز أكله من النبات هو ما مات منه .. أعنى الثمار الناضجة اذا سقطت على الارض من تلقاء نفسها فى أواخر الخريف . . ! ألا فليعلم الناس أن من يسحق البذور كمن يئد الاطفال . ان حبة القمح لها روح حى كالانسان سواء بسواء ، ولها ماله من الحق فى أن تحتفظ بهذا الروح آمنا مطمئنا ...

اقتنع اهل ارون بهذه الحجج الدامغة .. ولكن ماذا يصنعون ؟ .. ان العقل وحده لايكفى ، ولا بد الى جانبه من الاستماع الى صوت الغريزة لانه صوت الطبيعة .. . لا بل لا أمل فى اصلاح أهل ارون الا ان أيقنوا ان ما يمليه العقل وما توحى به الغريزة هما فى الاعماق شيء واحد



نبذة عن حياة وليم موريس

ولد عام ١٨٣٤ فى لندن ودرس فى اكسفورد ، وقد بدت فيه مخايل الفن ورغبة الاصلاح منذ صدر شبابه . وكان قد بدأ حياته بدراسة دينية ولكنه لم يلبث ان انحرف عنها الى دراسة التصوير ، وان له فى هذا الجانب لاثرا عميقا فى اواخر القرن التاسع عشر

وانك لتلمح فى كل ما انتجه موريس خيالا خصيبا والهاما غنيا ، فتراه يتدفق فى سلاسة عجيبة ، وتقلب شعره ونثره فترى صورا متزاحمة متلاحقة ، رسمها من جوانب متعددة فى افق الحياة، فصورها من الماضى ومن الحاضر على السواء ... ولكنك تلمح فى خلال هذه الصور المتتابعة المتباينة عنصرا واحدا مشتركا هو نزوعه الى التجديد ، نزوعه الى جمال الريف دون الحضر العقد ، والكاتب يخلع على شخوصه جميعا مسحة من حزن واسى ، لعل حزنه هو من مر الزمان . ومن صفات كتابته انه يمزج الحقيقة بالحلم مزجا يطبع الكتاب بطابع غريب فيجعله كانه خلط مهوش . ولكنه بلغ ذروة فنه فى كتبه التى بعد فيها عن الحقيقة الواقعة ومنها هذا الكتاب الذى نحن بصدده : « ابناء الارض التى لا وجود لها » كتبه عام ١٨٩١ وقد صور فيه احلام الانسانية وامانيها ، ولكنه صورها على نحو يخيل الى القارىء انها قريبة جدا من التحقيق، فهو يرسمها كانها حقائق ملموسة ، ويرسم لنا ما ينبغى ان يسود الحياة من سعادة ، وعطف اخوى بين الانسان والانسان ، وعاطفة تخلو من القسوة

الاليمة ، وعناء يخلو من اللذعة المريرة ، وعقل مطمئن هادىء في ارض جميلة هادئة

ومات موريس عام ١٨٩٦

ابناء الارض التي لا وجود لها

اخذتني سنة من النوم بعد حوار حاد مع بعض الاصدقاء استيقظت بعدها موفور النشاط ، فقصدت الى نهر التيمز استمتع بهوائه ومائه ، وهنالك الفيت نوتيا عرض ان يستصحبني معه في قاربه ... وبينما نحن سابحان اذا بي ابصر جسرا جميلا ، فسألت النوتي : متى شيد ذلك الجسر ، فأجاب الرجل : انه قديم : اظنه قد اقيم عام الفين واثنين فأخذتني دهشة عجيبة عميقة ان اسمع الرجل يتقدم بالزمن قرنين ، ولكني كتمت عجبي فلم ابد منه شيئا . وماهي الا ان رسونا على الشاطىء فادخلت يدي في جيبي واخرجت للرجل اجر عمله ... فنظر الى الرجل نظرة المبهوت .. اجر ؟ اجر ماذا ؟ اتؤجرني على عملي الذي اغتبط به .. انه ليلوح لي انك غريب في هذه البلاد . نعم ، لقد بلغت ان الناس منذ قرنين كانوا يؤجرون على العمل . لكم يسرني ياسيدي ان اهديك في هذا البلد مادمت غريبا عنه ...

لم أدر ماذا اقول سوى ان اذعنت ، ومضيت ومضى معي الرجل ، فرأيت في عرض الطريق غابة امها كثير من الاطفال يلعبون واشار اليهم دليلي وقال : ان الاطفال في هذا البلد يؤمون الغابات في فصل الصيف حيث يقضون بضعة اسابيع ، يعيشون اثناءها في مخيم يضربونه بانفسهم ويتدربون كيف ينجزون بانفسهم كل مايريدون ، وهم فوق ذلك يضربون في ارجاء الغابة ليروا

صنوف الحيوان فى عقر دارها؛ ذلك لاننا نعتقد عقيدة راسخة انه كلما قل الامد الذى يقضيه الاطفال داخل الدور وبين الوالدين ، كان ذلك خيرا لهم . . بل ان الكبار ليقصدون الى هذه الغابات الحين بعد الحين ، ليأخذوا انفسهم بشىء من شظف العيش بعد ان مهدت لهم الحياة هذا التمهيد الناعم فى العهد الاخير . . وانا لنطالب ابناءنا ان يتعلموا ركوب الخيل والسباحة والطهى والنجارة وادارة المتاجر وما الى ذلك

فسألت الرجل قائلا : الا تدربون ابناءكم تدريبا عقليا ؟ فأجاب : او لست ترى ان هذه الاعمال تكسبهم مهارة وتفسح امام عقولهم ارحب الفرص للمران والتدريب ؟ ومع ذلك فنحن نعلمهم القراءة فى سن الرابعة ، ولكننا لانرغمهم عليها ارغاما ، بل نغريهم بها مااستطعنا الى الاغراء سبيلا ، اما الكتابة فنؤجل زمنها خشية الا يحسن الاطفال الخط ، والخط الجميل غاية من غاياتنا . . واما اللغات فقد تواضعنا على ان نلقن الاطفال لغة اجنبية او اثنتين قبل أن يبدأوا فى تعلم القراءة ، فاذا مافرغ الناشىء من قراءته تركناه وشأنه يطالع مايشاء مع قليل من الهداية والارشاد . على اننا لانشجع القراءة فى سن مبكرة الا ان بدا فى الطفل ميل طبيعى الى ذلك ، لاننا نؤثر الف مرة ان ينفق الناشىء عهد الطفولة فى فلاحة البساتين واقامة الدور واعداد سقوفها ورصف الطرق وما شابه ذلك ، وعندنا ان ذلك انفع وامتع

وكنا قد بلغنا مدينة ، ومست بى الحاجة الى بعض التبغ املا به غليونى ، فأخذنى صديقى الى متجر نظيف انيق حيث اعطتنى الفتاة ما اريد ، فهممت ان انقدها ثمن ما اشتريت ، ولكن الفتاة فغرت فاها من العجب لهذا التصرف الشاذ . . ان الامر فى هذا البلد قد اقيم على غير قاعدة البيع والشراء ! . .



ان الاطفال فى هذا البلد يؤمون الغـــابات فى فصـــل الصيف

وذهبت مع رفيقى الى دارلاقيت فيها رجلا تقدمت به السن ويحسن الحديث فى شئون العهدين الغابر والحاضر ، فتركني رفيقى مع ذلك الرجل لانه قابل حبيبته وانصرفا معا .. فأخذت شجون الحديث تتوشج بينى وبين ذلك الرجل المحدث ، فعرضنا لطائفة من الموضوعات وعلمت منه كثيرا عما يجرى بينهم فى شأنها

فمنظر الشاب وحبيبته قداثارا مشكلة الزواج والحب والطلاق ، ومن هذه طرقنا موضوع المحاكم التى من شأنها ان تصل الود بين الزوجين اوتفصله .. فقال محدثى : لا ، لم يعد بيننا محاكم للطلاق لاننالانفهم ان تنشأ محكمة لعقد عاطفة بين شخصين ! ان هذه المحاكم كانت قائمة فيما مضى ، لأن اباءنا كانوا يأخذون بمبدأ الملكية الخاصة ، فكان حتما أن تقوم المحاكم بفض الخلاف ، اما اليوم فلا ملكية ولا خلاف ولا محاكم .

اننا لانخدع انفسنا فنحسبنا قادمين على حب جنسى يدوم مادامت الحياة .. كان الناس فيما مضى يغالطون انفسهم فيظن الرجل انه كل شىء فى عينى حبيبته ، وان حبيبته تلك بلغت من الكمال والجمال اعلى الذرى فما اسرع ماكان يذبل الامل ويذوى ، فيصعق الرجل ويصيبه اسى لاتنقطع اسبابه ..

نحن اليوم صحاح الابدان ميسورة حياتنا ، ونحاول ما استطعنا ان نستمد من الحياة الدنيا اكبر لذة ممكنة ومن دواعى فخرنا اننا لانركز افكارنا فى نفوسنا ، ونفرض ان العالم كله سيصاب بجمود الحركة لان رجلا قد مسه الحزن .. اننا نعتقد ان من الحمق بل من الاجرام ان يبالغ الناس فى شئون العاطفة وما يتعلق بها ، فيجب ان يحاول كل شخص ان يكتم فى نفسه آلام عواطفه وآلام جسده على السواء . لابد ان

نعلم ان فى العالم لذة اكبر من الحب .. فنحن نستخف بآلام العواطف ولا نذهب مذهب الاقدمين فى ان تحمل عبثها بطولة ورجولة

فاذا اراد زوجان منا ان ينفصلا فليفعلا مابدا لهما ، فمن الغفلة ان نرغمهما على الود مادام الود قد جفت اسبابه بينهما

وسألت محدثى عن موقف النساء فأجاب : لم يعد يثور بيننا ماكان قائما فى القرن التاسع عشر من جدل عنيف حول حقوق المرأة وحريتها ، فلا الرجال يفتاتون على النساء ولا النساء يطغين على الرجال ، فالنساء يؤدين مايحسن اداءه وما يطيب لهن عمله ، ولا يعارضهن الرجل فى هذا

فقلت : ولكنى شهدت النساء هنا يطهين الطعام ويقدمنه للرجال . فقال : وهل تحسب تدبير الدار مهنة لاتستحق الاجلال والاكبار ، كان هذا فيما اظن رأى النساء « المتمدينات » فى القرن التاسع عشر ! ان المرأة الذكية يشرفها ان ترعى الدار رعاية تستدعى من الناس الاعجاب

قلت : ان المرأة فى القرن التاسع عشر كانت تطالب أن تتخلص الممتازات من النساء من عبء الحمل والولادة ، فما رأيها فى ذلك الان ؟

قال : انه حمق لا أساس له وهو نتيجة طغيان طبقة على طبقة مما كان سائدا فى العصر الغابر الدابر .. ان الامومة عندنا شرف عظيم . وقد تخلصت الام بيننا من القلق الذى كان يساورها فيما مضى على مستقبل أبنائها لانها تعلم علم اليقين أن الدولة ترعاهم وتهيىء لكل منهم من العمل ما يلائمه .

فانتهزت فرصة ذكر الابناء وسألته رايه فى التربية قائلا ماذا ترى فى تربية الناشئة ، ولو أنى قد انبئت انك خليت بين أطفالك وبين الطبيعة دون أن تعلمهم شيئا ؟!

فقال : ياوح انك عتيق الرأى فى التربية ، فتذهب الى ماكان يذهب اليه الاجداد من تعليم النشء معلومات لم تراع فيها الدقة البالغة .. معلومات يفرض على الناشىء أن يزدردها ازدرارا سواء أرادها أو لم يردها ، معلومات طالما لاكتها الاجيال دون أن تعنى بتصحيحها ، ومع ذلك ترى كل جيل يحرص على تلقينها للجيل الذى يتلوه وهكذا ..

هل تريد يا صديقى أن نلقى بأبنائنا فى المدرسة ، اذا مابلغوا سنا نتواضع عليها ، مهما تكن قدرتهم على الفهم ومهما اختلفت فيهم الملكات والميول ؟ هل تريد أن نلزم هذا الجميع المتباين من الاطفال ان يخضع لنظام واحد وبرنامج واحد ، بغض النظر عما ركبته فيهم الطبيعة من أوجه التنافر والخلاف ؟ ألست ترى معى يا صديقى أن ذلك انكار صارخ لحقيقه النمو الجسمانى والعقلى ؟ انه ليخيل الى أن المدارس كما كانت عند ابائنا أشبه شىء بالطاحون تسحق الاطفال سحقا ، ما لم يكن لدى الطفل ميل الى الثورة على النظام المفروض ، وعندئذ ينجو بنفسه من ذلك الخطر الداهم .. ولحسن طالع الانسانيه ان الكثرة الغالبة من الاطفال كان فيهم هذا النزوع الى العقوق والثورة ضد مدارسهم ونظمها ، ولولا ثورة اولئك الايفاع الصغار على تلك النظم ثورة متصلة لم تنقطع ، لما بلغت الانسانية ما بلغته اليوم ؟

واحسب أن ذلك كله كان من نتائج « الفقر » وظواهره فقد كان يسود القرن التاسع عشر فقر مدقع بسبب السرقة المنظمة التى وضعها المجتمع اذ ذاك وأقام على أساسها كل شىء . ولذا استحالت التربية الصحيحة على أى انسان كائنا من كان ! . كانت التربية - أو ذلك الكائن الممسوخ الذى كانوا يسمونه التربية - عبارة عن تلقين الطفل قليلا من العلم ، وان رغب الناشىء

عن ذلك حقت عليه اللعنـــة والعذاب ، ولبث طوال عمـــره محروما من التعلم !

واعود فاقول ان الفقر هـو علة العلل فيما كان ـ اما اليوم فها أنت ذا ترى العلم كله معروضا يستقى منه من شاء ماشـاء ، وبذلك زادت ثروتنا العلميـــة واشتد خصبها ، وانفسح مجال النمو امام الجميع .

فاعترضته قائلا : انتم اذن تتركون للناشىء مطلق الحـرية فى أن يطالع ما يشاء كلما مال به هواه دون رادع أو زاجر . . فهب طفلا أو شابا لا يميل الى تحصيل العلم .. أو افرض أن طفلا يعارض فى تعلم الحساب ، أفلا يحسن أن نلزمه بذلك الزاما وهو فى دور الطفولة النامية قبل أن يتعذر ذلك ؟

فسألنى الرجل : كم بلغت من العمر ؟

فاجبته : بلغت ما يـدنو من خمس وستين .،

فقال : وكم بقى لك ممـــا تعلمت فى طفولتك من الرياضـــة والحساب ؟

فقلت : لم يبق لى منهما شىء مع الاسف ! ..

وانتقل الحديث من التربيـــة الى موضوع آخر . . فقـــد أخذ الرجل يحدثنى عمـــا كان قائما فى بلدهم فى الزمن الدابر من مساكن حقيرة تمجها النواظر ، اعدت للفقراء ! .. قال الرجل : اما اليوم فقد دكت تلك الوصمات دكا ومحوناها من وجه الارض محوا .. ان القوم فى هذا البلد يحتفلون كل عام بعيد يحيون به ذكرى « محو الشقاء » ، فترى الرجال والنساء يرقصـون فى ذلك العيد ويغنون ويمرحون على موقع أحقر منازل الفقراء فيما مضى ، اذ لا نزال نحتـــفظ بموضعه للذكرى ! فى ذلك العيد تغنى الفتيات الجميـلات بعض الاناشيد الثوريه القديمـة التى

كان يتغنى بها الاشقياء فى الزمن الغابر لينفسوا عن كرب نفوسهم، الاشقياء الذين كانت رحاب الامل قد ضاقت فى عيونهم . . نعم ان الفتيات الجميلات يغنين ويرقصن على المواضع التى كانت تهدر فيها الطبقات ، والمواضع التى كانت الطبقات الرفيعه تفتك فيها بالطبقات الوضيعة كل يوم فتكا ذريعا امتد طوال العصور . . وما أحلى لمثلى - ممن درسوا الماضى وعرفوا كوارثه - أن يرى فتاة جميلة ترقص وتغنى على بقعة من الارض كانت فيما مضى منزلا - أو قل كانت كومة قذرة يطلق عليها خطأ اسم منزل - وهو فى الواقع وكر ممقوت قذر يأوى اليه بعض الرجال والنساء، الذين ماكانوا ليطيقوا الاقامة فيه ليلة واحدة لولا أنهم جردوا من معنى الانسانية تجريدا . . فكر ياصاحبى فى هذا التحول الذى بدل البؤس عظمة وجلالا !

وجذبنا الحديث الى الحكومة فقلت لمحدثى : أود أن ألقى سؤالا أخشى ان يكون جافا عسيرا . . ما حكومتكم القائمة وما شكلها ؟ ترى هل انتصرت قوة الشعب ، أم انتهى الامر الى طغيان الدكتاتورية التى كان يتنبأ بها بعض الكتاب فى القرن التاسع عشر باعتبارها نتيجة محتومة للديمقراطية ؟

فقال الرجل وهو يبتسم : نحن اليوم يا سيدى أحرار ! فليس بيننا حكومة تبسط علينا سلطانها

ان الحكومة كانت فيما مضى ثمرة الطغيان وأداة الطغيان فما حاجتنا اليها اليوم وعهد الاستبداد قد انقضى الى غير رجعة ؟ . كانت الحكومة تحمى الاغنياء من الفقراء ثم توهم هؤلاء الفقراء البائسين انها انما تحميهم هم من غزوات الدول الاجنبية ! وماذا على الفقراء أن تغزو فرنسا انجلترا مادام العامل الانجليزى لن يكون أسوأ حالا ؟ نعم لن تسوء حال العامل أكثر مما كانت ، لان صاحب

المال لم يكن يتـرك له من ثمرة عمله الا مايقيم أوده ، فلا عليه بعد ذلك ان كان سـيده ذاك انجليزيا او فرنسيا !

واستطرد محدثي يقول : لقد يسرنا الحياة وشذبنا من اطرافها تلك النواتيء من تقاليـد مضنية وحاجات ثقيلة مما كان يبهظها في العصر الغابر .. فقد كان العيش فيما مضى صراعا متصلا وتقاتلا لا ينقطع . واعلم ان الحياة في صراع « هنة هينة لا مشقة فيها ولا عسر ، انما المشقة والعسر في الحياة التي يضبط الافراد أنفسهم فيها عن المقاتلة والسرقة بعضهم من بعض .. وقد نجح أهل هذا العصر في ضبط أنفسهم ، فكان ذلك سر سـعادتهم التي تراها بادية في وجوههم .. كان الناس فيما مضى يعتـدى بعضهم على بعض ، ومن كان منهم عف اليدين كان موضع الزراية ، لا يمجده القوم في حياته ولا يخلدونه بعد موته أمـا اليوم فلا يعتـدي انسان على حق انسـان ، وان اعتدى احد عد ذلك منه هفوة صـديق نحـو صـديق يعتذر له عنهـا ، أعني أن المجتمع لا ينبذه باعتباره عدوا لم يعد يصلح للحياة بين أعضائه

فسألته : اتريد بذلك أن ليس بينكم فئة « المجرمين » ؟

فأجاب : وكيف تنتظـر أن يكون هؤلاء بيننا وليس منـا اغنياء يثيرون الحقد في صدور الناس حتى ينتهي بعضهم الى شق عصا الطاعـة للدولة التي ظلمته .

انه لم يعد لدينا ما كان يسمى في العهد الدابر « بالقـانون المدني » . ذلك لان القـانون والمحـاكم كانت قائمة لتحمي الملكية الخصوصية ، وما دامت هذه الملكيه قـد اجتثت من جذورها ، فقد امحت الجـرائم التي كانت تنشأ بسببها ، ولم تعد بنا حاجة الى محكمـة أو قانون .»

فسألته : وما شأن سـائر الجرائم عندكم ، فأحسـب أن

الجريمة لابد من وقوعها ، وما أظنكم قد ألغيتم فيمـــا ألغيتم القانون الجنائى ؟ ..

فقال : ليس لدينــــا قانون جنائى بالمعنى الذى تقصده .. فكر معى فى الامر لنرى كيف تنشأ الجرائم . ان معظمها كان ينشأ فيما مضى بسبب الملكيـــة الخصوصيه ، لان قيام الملكيـــة يثير الطمع فى الصدور ، حتى لا ترى أحدا قانعا بما عنده ، فلما انقضى عهدالملكيةانقضت جرائمها .. وســبب اخــر للجرائم هو فهم العواطف الجنسية فهمــا باطلا ، فكان ذلك علة كثير مما كان يقع بين الناس من غــيرة وشقاء .. ولو فكرت فى أساس الامر لالفيته فكرة وهمية خلقها القانون ، وهى ان المــرأة ملك للرجل ، سواء أكان الرجــل زوجها أم اباها أم اخاها أم كائنا من كان . فلما امحت فكرة الملكية ذهبت هذه النزعة أدراج الرياح .. وسبب ثالث للجـرائم وهو طغيان الاسرة ، وذلك أيضا احدى نتائج الملكية الخاصه ، وقـــد انتهى ذلك ، لان إفـراد الاسرة لم يعد يربطهم رباط قانونى أو اجتماعى بل تصلهم صـلة الود والمحبة ، ولكل عضو فى الاسرة أن يتصل بها أو ينفصل عنهـــا حيثما أراد .. أضـف الى هذا أن مقاييس الشرف والتقـدير قد تغيرت ، فأصبح لكل انسان الحق فى أن يستغل ملكاته الى أقصى حــدودها دون أن يلقى فى سبيله عثرات الغـــيرة التى كانت تفتك بالنفوس . ان كثيرا من شقاء الانسانيــة فيما مضى كان سببه هذه الغيرة الممقوتة التى دفعت فئة كبيرة من الناس الى الجريمه .

ولست أريد بذلك أن الجريمة قد نضب معينها ، فــلا يزال فى الناس بعض النزق فيضرب أحدهم الاخر فيعتركان فينتهى الامر بالقتل أحيانا . ولكن ماذا نصنع بالقاتل ؟ أنقتله ؟ كلا لا



ان البيع والشراء لايخضع لنظام النقد ـ فاطلب ماتريد ..

نفعل ، لاننا نزن أمورنا بالميزان الصحيح ، فقتل القاتل لن يعيد الحياة للقتيل ولن يمحو شيئا من الاسى فى نفوس ذويه .

قلت : ولكن ألا ترى أن سلامة المجتمع لا تستقيم بغير حساب وعقاب ؟

قال : لقد أصبت شاكلة السداد . ما العقوبة التى طالما ثم تصرفوا فيها تصرف الاحمق تحدث الناس عنها حديث الحكيم البليد ؟ العقوبة تعبير عن الخوف .. وقد كان للناس عذرهم أن يأخذهم الخوف ماداموا يرون ذوى السلطان بينهم يمتشقون السلاح ليتقوا خطر الرعية التى يحكمونها .. كانما الامر بين الحكومة والشعب ليس أمر الجند وقائده ، بل الطير وصائده .. أما نحن اليوم فنعيش بين فئة من الاصدقاء ، لا نستشعر الخوف ولا نستنزل العقاب .

فقلت : هب رجلا تعود الاجرام ، فيقتل رجلا فى كل عام مثلا ، فماذا أنتم صانعون به .

فقال : يستحيل أن يحدث هذا فى مجتمع لا قانون فيه ولا عقاب . لان العقوبه تغرى النفس بأن تحاول الاجرام والافلات من العقوبة ، ولان القانون يغرى بالاعتداء عليه .. ومع ذلك فان أمعن رجل فى اجرامه كان فى رأينا مريضا يجب علاجه ـ كالمجنون سواء بسواء ولكن أمره فى الاعم الاغلب هو أن يحزن الفاعل على فعلته ويشعر بلذعة الضمير ، فيستغفر من وقع عليه الاعتداء

قلت : أتحسب الاحساس بالحزن بعد الجريمة رادعا كافيا ؟

قال : نعم ، فضلا عن ان ذلك هو مافى وسع الانسان أن يعمله .. أما ان عذبنا المجرم فسيتحول حزنه الى غضب ورغبة فى الانتقام .. ان مذهبنا هو أن الاجرام مرض عصبى يحتاج الى

الطب والتمريض لا الى القانون والتعذيب . ولما كنا - بوجه عام - صحاح الابـدان فنحن بمنجاة من هذا المرض

قلت: لقد ألغيتم اذن قانونكم المدنى والجنائى . ولكن أحسبكم قد احتفظتم بقانون ينظم التبادل بين الناس فى السوق ، لانه مهما يكن شأنكم فى الغاء الملكية فالتبادل شيء لا محيص عنه .

قال : نعم ، قد تواضعنا على قواعد نسير وفقها فى تبـادل السلع . ولست أحب ان اسميها قوانين ، لانها تمت برضا الناس اجمعين ، وليس بينهم من تغريه أطماعه ، بالاعتداء عليهـا . أما القانون فهو قرين العذاب لفريق من الناس . فاذا رأيت القاضى مستويا الى منصتـه ، رأيت خلاله - كأنه منشور من زجاج - رجال الشرطة والسجن والجلاد .

ومسسنا السياسة بالحديث فسألت محدثى : وكيف تديرون شئونكم السياسية ؟

فأجاب فى لهجة قـوية : لا سياسة عندنا . وان قدر لهذه المحاورة ان تنشر فى كتـاب ، فأرجو ان تفرد لهـذه العبارة القصيرة بابا خاصا .

فسألته وكيف تقوم علاقاتكم مع الدول ؟

فأجاب : اننا لما قضينا على أوجه التفاوت بين الانسـان والانسان ذهب التناحر والتنافس الدنىء بين الامم فاعترضت قائلا: ولكن ألست ترى أن محو جوانب الخلاف بـين الامم يسىء الى الحياة ولا ينفعها ؟

فأجاب : كلا ، ان الخـلاف موجود .. فاعبر البحر وانظر تر ألوانا شتى من التباين، ولكنه تباين ليس بين بنى الانسـان كالذى كان، بل خلاف وتنويع فى مناظر الطبيعة وانماط البنـاء والوان الاكال وصنوف اللهـو والسلوى .. ان أفراد البشر

يختلفون اختـــلافا فسيحا فى الاشكال والعادات وانواع التفكير فهل يضيف الى هذا التنـــوع شيئا أن تحارب أمة « أمـة » لتخضعها ؟ هـــل يضيف الى التباين القائم شيئا أن تثير فى النفوس شعور الوطنية ، وهو حمق وتفكير باطل أساســـه التعصب المرذول ؟ . . اننـــا حين حررنا أنفسنـــا من تلك المهزلة الخبيثـة ، تبين لنـــا فى جلاء أن الخلاف بين الاجناس يعين على الرقى ويعمـــل على تحقيق سعادة العالمين . فكلنا يسعى الى غاية واحـدة ، وهى أن نستغل الحياة الدنيـا الى الحد الاقصى ، وقلما ينشأ نزاع على ذلك بين الاجناس ، الا ان اصطنعناه اصطناعا . .

قلت : وما رأيكم فى الخلاف بين أهل الامة الواحـــدة فى الرأى ؟

قال : ان الخلاف فى الرأى لا ينبغى قط أن يشقق الناس الى أحزاب متنازعة متقاتلة . . بل اعلم يا صديقى ان الساسة فى العهد القديم كانوا يدعون ادعاء باطلا انهم مختلفـون فى الرأى ليبرروا بذلك الوهم انقسـامهم الى أحزاب . وغايتهم من هذه اللعبـــة أن يبتزوا من أفـرادالشعب مالا ينفقونه على انفسهم فى حياة باذخة مترفة

قلت : ولكن الخلاف السياسى بين الافراد جزء من طبيعـــة الانسان فيما أظن ؟

فأجاب : طبيعة الانسان ! أية طبيعة تريد ؟ طبيعـة الفقـراء والعبيـد أم طبيعـة الاغنيـاء الاحرار ؟ . . ان نشأ خلاف فى الرأى فذلك أمر موقوف زائل لايبرر أن تدوم الخصـومة بين الاحزاب . . فان الناس لايختلفون فى الامـور الشخصـية كاللباس والطعام والكتب التى تقرأ والتى لاتقـرأ ، وذلك لان الامر فيهـا

لايمس المجتمع ، اما ان كان ممايتصل بمصالح الناس المشتركة فليكن الراى الفصل لاغلبية الناس ... فلا طغيان لفرد أو لاقلية مستبدة !

وسالت محدثى كيف يحفزون الناس للعمل ان كانت الملكية الخاصة محظورة ، فأجاب : ان جزاء العمل يا صديقى هو « الحياة » ! ألا تكفى الحياة حافزا للانسان على العمل ؟ .. فاعترضت بأن المجيد والمسيء يستويان . فقال : هذا خطأ . ان مكافاة المجيد هى اللذة التى يجدها فى الخلق والابداع . ان من طبيعة الانسان أن يخلق ولا يطالب بأجر على ذلك ، والا لجاءنا الآباء يطالبوننا بأجر على نسل الابناء ! !

قلت : ولكن اهل القرن التاسع عشر يردون على ذلك بأن للانسان ميلا طبيعيا للانسال ولكنه لايرغب بطبيعته فى العمل

فقال : لا ، اننا نكفر بهذا القول ولا نؤمن به . فهو زعم معناه أن العمل شقاء كله ، وليس الأمر عندنا كذلك . بل هو على نقيض ذلك ، لقد بثثنا فى العمل لذة تغرى الناس به ، وليس ذلك بعجيب ، اذ الفنان الحق يستمتع بما يؤديه ، وعمالنا يأخذون العمل على أنه فن جميل ، كل يختار ما يستمتع به

قلت : يخيل الى ان هذا التطور فى وجهة النظر الى العمل اهم واعمق مما حدثتنى عنه فى الجريمة والسياسة والملكية والزواج . فكيف تم لكم هذا ؟

فأجاب : تم لنا هذا التغير حين محونا الروابط المصطنعة التى كانت تربط الافراد فيما مضى وتركنا لكل انسان مطلق الحرية فى أن يعمل مايحسنه ويتقيه ، وما علينا الا أن نلائم بين الانتاج وبين مايريده السكان .. . انى اعلم مما سمعت وما قرأت أن الناس فى العهد الغابر قد اصابهم السوء حين امعنوا فى كثرة الانتاج

بغير ملاءمة بينه وبين القدر المطلوب . انهم يسروا طرائق الانتاج تيسيرا كبيرا وأرادوا ان يستغلوا ذلك الانتاج السهل بان يغمروا السوق بالسلع ، سواء أكان العالم بحاجة الى هذه السلع أم لم يكن ، وقد ضحوا بكل شيء في سبيل « الانتاج الرخيص » - كما كانوا يسمونه - فضحوا بسعادة العامل في عمله ، بل بصحته وطعامه وكسائه ومأواه وفراغه ولهوه وتعليمه .. بل قل ضحوا بحياة العامل كلها ! اذ لم تكن حياة العامل في نظرهم تزن جناح بعوضة اذا قيست الى الرغبة الجارفة في كثرة الانتاج الرخيص ، مع ان كثيرا جدا مما كانوا ينتجونه لم يكن يستحق عناء صناعته . وأعجب العجب أن العامل قد استطاب هذا العيش الاغبر فجاء ذلك مصداقا لما يقال من ان الخنفساء تتعود العيش في الروث ! .. . انهم اخترعوا الآلات ليوفروا العمل ! يا لها من أضحوكة ساخرة ! اعلم يا صديقي أن كل محاولة اريد بها تقليل العمل قد انتهت الى زيادة . ان شهوة الاسواق قد زادت بما كانت تطعم به ، وباتت كل يوم تصيح : هل من مزيد ! فانطلق العالم المتمدين - أقصد العالم الذي امتلأ بالشقاء المنظم - يغزو البلاد بالقوة والخداع ، ويستر وحشيته بغشاء رقيق يشف عما تحته في غير عسر ؟ فيزعم أنه انما يطلب انقاذ الانسانية من بيع الرقيق ، مع أن استعباد التجارة أشد وأقسى ! أو يزعم أنه يريد ادخال دين جديد مع أن أصحاب ذلك الدين لم يعودوا يؤمنون به ! او يزعم انه يقصد الى انقاذ حاكم ثارت عليه رعيته مع أنه حاكم مجنون سقط بعمله السيىء في نفوس مواطنيه « الهمج ! » ... هكذا كان العالم المتمدين يتوكأ على اية عصا صادفته ، فاذا ما تم له الفتح ، فرض مصنوعاته على الاهالي فرضا ، مع انها مصنوعات

لاقيمة لها ، والخذ « بدل ذلك »محصولاتهم الطبيعية . وهـذا الذى اطلق عليهاسم « التبادل »ان هو الا سرقة ممقوتة !

اننا اليوم لانصنع الامايلزمنافى حياتنا ، اذ من الجنـون ان نصنع سلعـا لاندرى من أمرهاشيئا .. ونصنـع أشياءنا على النحو الذى يبعث اللذة فى نفس الصانع ، فان كان عملا ثقيلاعلى النفس عملناه بالآلات ، وان كان مما يثـير استمتاعا صنعنـاه بالايدى . وليس شاقاعلى الدولةان تجد لكل فرد العمـل الذى يناسبه وبهذا أصـبح العمـل متعة للروح والجسد ، واصبح شيئا نسعى اليه ولا ننفر منه

وهنـا دق ناقـوس الغـداء فذهبنا الى ساحة السوق حيث شهدنا حشدا من الناس فى بهوكبير اجتمعوا لياكلوا على موائد عامة ! اما الطعام فشـهى لذيذبدل على ان طهاته مشـغوفون بعملهم فأتقنوه صنعـا .. ولن أبالغ مهما أطلت القول فى نظافة الاوانى ودقة الخـدمة وجمـال النظام ...



نبذة عن حياة ه . ج . ولز

ولد هربرت جورج ولز فى « برروملى » بمقاطعة « كنت » بانجلترا عام ١٨٦٦ من اسرة تقع من طبقات المجتمع فى الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى . وقد استخدم فى صدر شبابه فى متجر الاقمشة ، ثم اشتغل مدرسا مساعدا فى احدى المدارس ، وبعدئذ التحق طالبا للعلوم يستمع الى محاضرات هكسلى ، ولبث كذلك حتى ظفر بدرجة فى العلوم من جامعة لندن . ومنذ ذلك الحين اخذ يلقى دروسا بتلك الجامعة . واخرج كتبا منها كتابه فى علم الحياة . وطفق يكتب كتابة متصلة فى المجلات حتى ذاع اسمه فى الناس ، ولعل اول ما استوقف انتباه القراء اليه هو قصصه القصيرة التى اقامها على موضوعات علمية . وهذا الضرب من القصص هو الذى جعله من اوسع الكتاب شهرة فى ارجاء العالم فى هذا العصر ، واصدق مثال لهذا النمط من مؤلفاته قصته « آلة الزمان »

وولز يدين بمذهب الاشتراكية ، وقد كان عضوا فى جمعية « الاشتراكية المعتدلة » ، ولكنه انفصل عنها فيما بعد ، وشق لنفسه طريقا خاصة به فى تعميم آرائه الاشتراكية ، فاخذ ينشر فيها الكتب تباعا وفى صور مختلفة ، من ذلك كتابه « الاشتراكية والزواج » وكتاب « عالم جديد مكان عالم قديم » ومجموعة فصول سماها « آمال مرقوبة » وكتاب « الانسانية فى دور التكوين » وكتاب « يوتوبيا جديدة » وهو الذى عنينا بتلخيصه هنا وقد اصدره عام ١٩٠٥ ... ولم يلبث ولز ان انصرف بكل عنايته الى هذه الدراسة الاجتماعية

حتى جعلها محورا يدور حوله ما يكتب من قصص .. حتى اذا ما وضعت الحرب اوزارها اخذ يفكر وينشر فى اعادة تنظيم العالم من جديد ، على انه حقيقة واحدة متصلة لا تفرقة بين اجزائهـا . ومن اهم ما اخرجه لتحقيق هـذا التنظيـم الجديد هو كتاب « الانســان : عمـله وثروته وسعادته (١) »

هكذا ترى ان انتاج « ولز » الادبى قد انصرف معظمه نحو اصلاح العالم على اساس اشتراكى معقول ، وستراه فى هذا الكتاب الذى نوجزه ، يقدم الصورة المثلى التى يرجوها للناس فى هذه الحياة الدنيا



يوتوبيا حديثة

كانت المدائن الفاضـلة التى سبقت عصر « دارون » تصور الدولة المثاليـة كائنـا آسـنا لا يتحـرك ولا ينمو كأنمـا هو قد بلغ حد الكمال ، وكأن الدولة قد كسبت لنفسها أسـباب السعادة وتخلصت من الوان لاضطراب والقلق والفوضى الى ابد الآبدين . نعـم ، كانت امنية الفلاسفة قبل دارون أن تتألف الدولة من شعب قليـل فاضل سعيد متشابه الافراد ، ثم تعقبه اجيال واجيال صبت على غرار الصورة السابقه ، وهكذا حتى يقضى الله فى العـالم امرا كان مفعولا . واذن . فلم يكن كتاب المدائن الفاضلة قبـل نظرية التطور يعترفون بضرورة التغير والتحـول فى الدولة وأفرادها . أما « اليوتوبيـا » الحديثه » فأول ما تنشده ان تكون الحياة متدفقـة متطورة عصرا بعد عصر ، فلن نصورها دوله كتب لها الدوام ، ولكنـا سنرسم حالة نعترف انها حلقة من سلسلة متصلة كان قبلهـا حلقات وسيأتى بعدها حلقات الى غير نهاية معروفة . فلست

(١) قد ترجمنا منه فصولا ونشرناها بعنوان « الاغنياء والفقراء »

اليوم أحاول أن أصد تيار الحياة الجارف كما حاول السابقون ، بل أريد أن أطفو على ذلك التيار لافيد بعنفه وقوته .. فلو مثلنا المدينه الفاضلة القديمة بحصن مكين القوائم لا يحول ولا يزول ، كانت مدينتي الفاضلة التى أرجوها أشبه شيء بدولة سابحة على ظهور السفائن لا تنفك متحركة متغيرة وذلك هو الفارق الاول بين « يوتوبيا » أقيمها على الآراء الحديثة وبين السوابق التى انشأها كتابها على الافكار الماضية .

أريد ان أصور حياة يمكن عقلا ان تظهر فى عالم الوجود بحيث تفضل الحياة الراهنة . ولن اخطىء كما اخطأ السالفون فأشير بقلب طبائع الانسان والاشياء ، وبأن يكون أفراد الناس جميعا على قسط موفور من الحكمة والتسامح والنبل والكمال . ولن ادعو الناس الى حال من الفوضى المتسقه فأنادى بأن يعمل كل فرد مايروق له ، زاعما أن أحدا لن يطيب له أن يؤثر الشر . فليس مثل هذا العالم الكامل من ممكنات الزمان والمكان ، ففى الزمان والمكان تسود « ارادة الحياة » التى لابد أن تستتبع الوانا من الظلم .. وسأحاول ما استطعت ان أكون عمليا فى التفكير فأحدد نفسى بما هو فى مقدور الطبائع البشرية كما هى اليوم ، وسأرسم الدوله المثلى فى عالم تتعاقب فيه الفصول وتتقلب ، وتنزل بالناس الكوارث المفاجئه والامراض الفاتكة ، وسأصور الناس بحيث أعترف لرجالهم ونسائهم بالعواطف المتغيرة والرغبات المتقلبة فأنا اسلم بأن العالم قائم على صراع وتنازع ، وفى هذا أيضا أخالف أسلافى من كتاب المدائن الفاضلة .

ولكنى ان اعترفت بمبدأ الصراع بين الاحياء فسأطلق لنفسى كل حرية فى تصويره بحيث لا أعدو حدود

العقل البشرى كما اعلمه ، وساطلق لنفسى كل حرية كذلك فى تصوير بناء الوجود الذى فى مقدور الانسان أن يبدله اذا اراد ، لانه هو الذى صنعه لنفسه بارادته ، فساصور كيف شئت المنازل والطرق والملابس والقنوات والآلات والقوانين والتقاليد والحدود والعهود والمدارس والادب والدين والعقائد والعادات وما الى ذلك مما يستطيع الانسان أن يبدله .. واحسب أن ذلك هو الاساس لكل مدينة فاضله قديمة أو جديدة ، اعنى أن نحرر الانسان من تقاليده وعاداته وقوانينه ، ومما تستتبعه الملكيه الخاصة من استعباد ورق . . واحسب ان كثيرا من الآراء النظرية التى قالها اصحاب المدن الفاضلة فيما مضى ، تنحصر قيمته فى هذا السعى نحو الحريه الانسانية ، فللانسان رغبة أبدية خالدة فى ان يفلت من قيوده ، وفى مقاومة ماتخلف من آثار الماضى ، وفى أن يبتكر ويسعى وينتصر ..

ان المدائن الفاضلة القديمة معيبه لان حرارة الحياة الواقعة ودماءها لا تسريان فى أجسامها . فليس فيها أفراد متميزة أشخاصهم ، ولكنها كانت تقتصر على « ناس » على وجه التعميم . . وانت تلمح فى كل المدائن الفاضلة السابقة — ما عدا موريش — أبنية جميلة ولكنها تخلو من الشخصيه الجزئية ، وترى حقولا منسقة كاملة ، وجماعات الناس تروح وتغدو فى صحة موفورة وسعادة وثياب نظيفة جميلة ، دون أن يكون هنالك تمييز بين أشخاصهم .

وأنا اشك فى ان أحدا يود ان يكون فردا فى جمهورية أفلاطون على الرغم مما بها من حسنات ومزايا .. واشك فى ان يطيق شخص البقاء شهرا واحدا بين الفضيلة الخالصة التى رسمها « مور » فى أرضه المثلى .. ان الحياة الشخصيه فى لبها عبارة عن صراع متصل مفيد ، ولست ارى غايه لليوتوبيا سوى أن تصلح هذا الصراع

واليوتوبيا الحديثة لم يعــد يكفيها من رقعة الارض أقل من كوكب بأسره ، فقد انقضى الزمن الـذى كان يكفى للـدولة المثـلى واد منعزل او جزيرة موحشة ، فالتفكير الحديث لا يسيغ العزلة للدولة ، والاختراع الحديث يعمل مسرعا عـلى ربط أطراف الارض بعضها ببعض ، ولن تسـتطيع دولة أن تعتزل فى وادأوفى جزيرة خشـية الاعـداء الغــزاة ، لان الطائرات لاتعجزعن ان تهبط حيث شاءت ، ولا تعرف عزلة تعـز عليها . فالدوله التى تقوى اليوم على الاعتزال بنفســها يجب أن يكون لها من القدرة ما تستطيع به أن تحكم العالم ، واذن فيجب ان تكون الدولة المثلى عالميــة تشمــل الارض بأسرها . . فلسنا نستطيع فى هذا العصر أن نقيم اليوتوبيا فى أواسط أفريقيا او فى جنوبى أمريكا أو حــول القطب ، بل لا بد لنا من كوكب بأسره . .

سنختار اذن لدولتنا المثلى كوكبا يشبه هذا الكوكب الارضى الذى نعيش على سطحه ، بما فيه من قارات وجزائر ومحيطات وبحار . . سيبلغ الشــبه بينه وبين الارض حدا بعيــدا بحيث لو ذهب اليه عالم نبـاتى لما عز عليــه أن يجد كل صنوف النبـات التى عهدها فوق هــذه الارض . .

وذلك ما حدث . فقد كنت بصحبة صديق عالم بالنبــات عند جبال الالب ، فانتقلنا فى مثل لمح البصر الى كوكب جـديـد يشبه ارضنا شبها تاما ، بحيث لم نلحظ تغيرا فى الموقف ، فلم تنقص سحابه من الفضاء ولم تغب شجرة أو صخرة مما كان على مقربه منا على الارض . . ومع ذلك فلم نلبث ان اخـذنا فى الشعور بوجوه الخلاف شعورا قويا غامضا ، وذلك حين شهدنا رجلا يرتدى ثيابا عجيبة ويتكلم لغة لم نالفها . . وسرعان ما لاحظ صديقى أن الدب الاكبر لا يظهر فى السماء ، وهنا أدركنـا على الفور أن الارض لم تتغير ، ولكنا نحـن الـذين هبطنـا الى أعمق أعماق المكان فأصابنا التغير .

وأول ما علمناه أن ذلك الكوكب تسوده لغة واحدة يفهمها كل فرد من أفرادها ، وذلك لانهم تبينوا أن اختلاف اللغة حائل لعين ممقوت يبعث النفوس على التنافر - « فأنا يا صديقي ان كنت ازاءك كالاصم الابكم ، كنت عدوك اللدود » .. واللغة علمية واضحة لا غموض فيها ، تبلغ من الوضوح مبلغ القوانين الرياضية ، فتصريف الافعال مطرد لا شذوذ فيه وكل كلمة تتميز عن غيرها فى المعنى والهجاء وهذا وحده دليل كاف على أن الاساس العقلى لبنى الانسان قد اصلح ، وأن قواعد المنطق ونظم العدد والقياس قد أعدت اعدادا صالحا ... واللغة مؤلفة من مجموعة لغات كما تتألف الانجليزية من اللغات الانجلو سكسونية والنورماندية واللاتينية . اننا لا نريد أن تحيا لغة وتموت أخرى ، بل نحب أن تندمج اللغات كلها فى لغة واحدة حية قوية .

وأذكر أن اول ما اردنا أن نطالب به حين هبطنا كوكب اليوتوبيا الحديثة هو حريتنا الشخصية .. ان المدن الفاضلة القديمة لم تبد نحو الغريب الا حبا ضئيلا يكاد ينعدم ، ولكن العصر الحديث قد خلق فكرة التسامح ، واليوتوبيا الحديثة العالمية انما ترتكز على الافكار الحديثة

فالحرية الفردية فكرة ازدادت أهمية ، وما زالت تنمو كلما تطور الفكر الحديث . أما كتاب المدائن الفاضلة القديمة فقد اعتبروا الحرية شيئا تافها ، وظنوا أن الفضيلة والسعادة لا ترتبطان بالحرية ، وانهما أكثر أهمية منها . لكن الراى الحديث يتمسك بالنزعة الفردية ، ولذا فهو يتشبث بحرية الافراد ويزيد من قيمتها ، ولعلنا مدركون عصرا تكون فيه الحرية هى لب الحياة ولا حياة بغيرها ، أو ان شئت فقل ان الحرية هى الحياة ، وأن الجماد الميت الذى لا اختيار له هو وحده الذى يعيش

فى طاعة مطلقة للقوانين .. ان الحرية الفردية من وجهة النظر الحديثة هى انتصار الوجود على العدم ، هى انتصار الوجود انتصارا ذاتيا ، كما ان التناسل والخلق انتصاره الموضوعى . ولكن الانسان حيوان اجتماعى ، فلا ينبغى اذن أن تنال ارادته من الحرية حدا مطلقا من كل قيد ، لان الارادة الحرة الخالصة لاتتوافر الا لطاغية يصدع العالم كله بأمره ، وعندئذ تكون الارادة معناها التنفيذ .. أما ما عداذلك من صنوف الحرية فمعناه التوفيق بين ارادتنا وارادات من نعيش معهم فى مجتمع واحد . فأبناء الدولة المنظمة يعلم كل منهم ماذا يجب ان يؤديه لنفسه والناس ، وماذا ينبغى للناس أن يعملوه له ، أعنى أن كل فرد يحد تصرف الآخرين بحقوقه كما يحدونه بحقوقهم وبما يمس سعادة المجتمع فى مجموعه

وقد ينكر غلاة المذهب الفردى حدود الحق والواجب ولكنهم مخطئون . فالمنع قد يزيد من مجموع الحرية والمنح قد ينقص منها . فلا يتحتم — كما يذهب متطرفو المذهب الفردى — أن تزداد حرية الانسان كلما قل القانون المفروض ، وأن تثقل قيوده . كلما كثرت مواد القانون . فالاشتراكية أو الشيوعية — وهما قائمتان على مجموعة منظمة من القوانين — ليس حتما ان تؤدى الواحدة منهما الى الاستعباد والرق . وكذلك الفوضى الناشئة من محو القانون ليس فيها من الحرية شيء . فانظر مثلا كم نكسب من الحرية حين يحرم علينا القانون ان نزهق نفوس الآخرين ! فأنت تستطيع ان تجوس خلال العالم كله لا يثقلك سلاح ولا يفزعك خوف ، أعنى انك حر من الوحشة المخاوف والمخاطر ودواعى الحذر

فرجاء العالم فى اليوتوبيا الحديثة ان تمحو الدولة كل ماليس يلزمنا من ضروب الحرية ، اذ الاسراف فى منح الحرية

مضيع للحرية . فواجب الدولة الاتجيز حرية واحدة أكثر مما ينبغى ، وذلك يتيح للناس أقصى حدود الحرية العامة .

وهنالك وسيلتان للحد من الحرية : النهى : « يجب الا تعمل كذا » والامر : « يجب أن تعمل كذا » . وثمة ضرب من النهى يصاغ فى صورة الامر الشرطى : « اذا عملت كذا وكذا فيجب كذلك ان تعمل كذا » مثال ذلك « اذا نقلت قوماعبر البحر فيجب أن تحملهم فى مركب متين » ... فالنهى معنـــاه أن تنتقص من حرية الانسان المطلقة جزءا ، ثم يبقى له ما عدا ذلك. مجال فسيح من الاختيار لا حد له ، فهو لا يزال حرا يسبح فى محيط الحياة كيف شاء ، لانك لم تاخذ منه سوى حفنة من ماء ! ! أما الامر فهو معول يهدم الحرية ويدكها دكا . ولذا فسنعمد فى اليوتوبيا الحديثة الى النهى دون الامر ، وان اضطررنا الى الامر فى بعض الحالات ، فذلك نادر لامحيض لنا عنه

وما هى ضروب الحرمان التى نفرضها ؟ اولا لا يجوز أن تكون للفرد حرية القتل والتهديد ، وكذلك لاينبغى لنا ان نمس شيئا ليس لنا ، فقد يكون ملكا لغيرنا أو ملكا للدولة ، حتى نعلم فكرة اليوتوبيا عن الملكيـة .. . ولنا حرية مطلقة فى الذهاب الى حيث شاءت نفوسنا ، وليس ذلك باليسير ، فحرية الحركة من أجل نعم الحياة : اعنى أن يكون للفرد حق الذهاب الى حيث تدفعه رغبته ، وأن يرتاد الارض من أقصاها الى اقصاها ليرى ما بها . ان الدولة مهما بسطت كفها فى منح الحرية لافرادها وفى تهيئة الرفاهية والامن والنظام ، فلن يشعروا بالسعادة اذا حرمتهم نعمة الحركة . للانسان المتمدين رغبة فى حرية الحركة حيث شاء ، ورغبة أخرى فى ان يكون له مكان خاص به يحرم على غيره أن يعتدى عليه ، وعلينا أن نرسم الحد الفاصل بين هذين .. ان رغبة الملكية الخاصة المطلقة التى لايشاركك فيها احد سواك



ليست قوية ملحة فى الانسان . ففى الكثرة الغالبة من افراد البشر تبلغ غريزة الاجتماع من القوة حدا تصبح معه العزلة مصدر ألم شديد ، الا ان كانت عزلة مؤقتة قصيرة الامد . ان الانسان بطبيعته لايريدان يختص لنفسه بشىء سوى افكاره التى تضطرب فى راسه ، وهو يؤثر أن يلقى العذاب مع الناس على ان ينفرد وينعزل . ولكن هنالك صنفا من الناس يستشعراللذة فى الوحدة والعزلة ، هناك من الناس من لاينام نوما هادئا أو يفكر تفكيرا مثمرا ، أويقدرجمال الاشياء الا وهو معتزل ، ومن أجل هؤلاء النفر يجب أن نرسم الحدود التى تحد من حرية الحركة . وان العالم لتسوده فكرة أن يكون للفرد مكان خاص به ، لا ليعتزل فيه ان أراد فحسب ، بل ليضم اليه فيه من يشاء من الرفاق .

كان المجتمع المثالى فيما مضى ذا عقيدة واحدة يؤمن بها الجميع ، وعادات واحدة وأعياد مشتركة واخلاق بعينها عند الافراد جميعا ، وثياب لاتختلف فى فرد عنها فى فرد آخر من

طبقته . فكل الناس يحبون ويعبدون ويموتون على نمط واحد .. نعم كان الاتجاه الطبيعي الذي يغلب على الشعوب ، أبيضها وأسودها على السواء ، هو ميل مطبوع نحو تشابه الافراد والتوحيد بينهم ، وهو ميل يسعى التعليم الى محوه وهدمه .. كان الفرد فيما سلف اذا شذ فى لباسه أو طعامه أو سلوكه بصفة عامة كرهه المجتمع ونبذه غير ان طبيعة الحياة لم تبخل على الانسانية عصراً بعد عصر بالعقول الجريئة المبدعة المنشئة التى تنزع بأصحابها نحو الخروج على ما تُواضع عليه المجتمع ، ولولا شذوذ هؤلاء لما تقدم البشر خطوة واحدة نحو الكمال ...

أما اليوم فقد أضحى التجديد والابتكار والاصالة فى الفكر والتصرف أيسر جداً مما كانت فى العهود الغابرة ، وذلك بفضل تطور الآلات وكشف المواد الجديدة وظهور نظم اجتماعيه جديدة . ولذا ترى التقاليد فى كل مكان تتقوض دعائمها ، والاستمساك بالآراء والعقائد القديمة تندك قوائمها ، ولكن لم يملأ مكانها حتى اليوم تسامح يشمل اجزاء العالم كله ، ولم يحل محلها اعتراف صريح

يجيز للافراد ان يتبـــاينوا فى التصرف والتفكير ، ولم تظفـر الانسانية بعد بسعة الفكر وبعد النظـر .. أما أهل اليوتوبيـا الحديثة فأيسر عليهم من سكان هذه الارض أن يأكلوا فى الملأ ، وان يستريحـوا ويستمتعـــوا ويعملوا علنا فى غير حياء ولا خجل .. واحسب مطالبة الناس على هذه الارض ان يكون الفرد مكان خاص به يفعـــل بين جـدرانه مايشـاء ، خطـوة انتقـال بين مرحلتين من العلانية ، علانيـة فى التصرف كانت تسود فى الماضي وكانت ترجع الى مابين الافراد من تجانس ، وعـلانية سـتقوم قوائمها فى المستقبل عـلى ذكاء الافراد وحسن تربيتهم وتنشئتهم .. ومع هذا الاتجاه الجـديد ؛ستحتفظ يوتوبيا الحديثة بحق الافراد فى خصوصية الدار

ولن تقتصر حرية الحركة فى اليوتوبيا على اطلاق سراح المشاة يجوبون حيث يشـــاءون ، بل ستشـــمل أرجاء العالم بأسره فسيكون العالم امة واحدة تتكلم لغة واحدة ، وهـذا معنـاه ان يأخذ الناس فى الرحلة والسفر من طرف الى طرف على نحـو من الكثرة والسرعة لم يعهد له العالم مثيلا من قبل .. وقـد دلتنا التجارب فى هـذه الارض الى أنه اذا ما ارتفعت القيـــود الاقتصـــادية والسـياسية عن احدى طبقات المجتمع ، اخذت على الفور تتأهب للرحلة والسفر فى بلاد الارض قاصيها ودانيها وانت اذا بحثت فى انجلترا مثلا الفيت الطبقة التى يبلغ دخلهـا خمســمائة جنيـه كل عام قـد سافر افرادها كلهم خارج البلاد ، ويندر جدا ان تجد بينها واحدا لازم أرض الوطن طوال حيـاته .. وفى اليوتوبيا الحديثة سيكون السفر جزءا من صميم الحياة ، لا مجرد ترف يستمتع به الاغنياء وحدهم . لابد أن تهيأ الفرصة لكل انسان كائنا من كان ليرتحل فى مختلف البلاد فيرى صـنوف لم يعهدها من الاجواء والمنـاظر والوجوه والمنـازل والطعـوم ، والوانا لم يألفهـا من الشـجر والنبـات والزهر والحيـوان ، ويصـعد الجبـال الشـامخـة ،ويحس زمهرير الليل فى اقصى

الشمال وهجير الشمس فى المناطق الحارة ، ويسير بحذاء الانهار الكبيرة ، ويتذوق العزلة فى مهجور الصحراء ، والوحشة فى الغابات ، ويعبر المحيطات والبحار ..

سيفتح العالم فى يوتوبيا الحديثة ابوابه للجميع وسيهيىء الفرصة للجميع ، وينشر الامن فى ربوع الارض ليطمئن المسافرون وستتآلف بلدان العالم كلها غدو الراحلين ورواحهم ، فأينما حط المسافر رحاله وجد وسائل راحته .. نعم ، سيصبح الجزء الاكبر من سطح الارض فى مقدور كل انسان ان يراه من حيث سهولة الانتقال ورخص الاجور. فاذا منح الانسان حرية السفر دون ان تقوم فى وجهه حوائل اللغة والمال والعادات والقانون ، فما احسبه مكتفيا بمكان ضيق من الارض يحصر نفسه فيه حتى يموت . وان هذا التزاحم الكثيف فى بعض جهات العالم لدليل ناهض على العقبات التى تصد الناس عن السفر ، واغلب الظن ان الانسان آخذ اليوم فى طور جديد من حياته .. هو طور السفر

ووسائل السفر عند اهل يوتوبيا متعددة ، ولست تجد بينها هذا القطار بدخانه الخانق ، فقد امتدت فى ارجاء يوتوبيا شبكة من الخطوط ، كأنها نسيج العنكبوت ، فتراها تخترق الجبال وتسير تحت البحار بسرعة تتراوح بين مائتى ميل فى الساعة وثلاثمائة ، وهذا معناه محو الشقة التى تباعد بين البلاد . والقطر هناك ممتعة مريحة تقرا فيها وتلعب وتنام فلا تحس شيئا من عناء السفر ... وقد حرص اهل يوتوبيا على ان يبقى الحصان فى السهول ليستمتع من أراد الركوب ، وان تظل الجمال فى الصحراء والفيلة فى بلاد الشرق الاقصى والبغال على قمم الجبال ، ولكنهم فيما عدا ذلك جعلوا وسائل النقل كلها آلية سريعة .

وهـذا التيسـير فى السـفر سيجعل من اهل يوتوبيا اقواما مهاجرين ، لاتنفك الجماعة منهم ان تنتقل من بلدها الى بلد آخر تستقر فيه اذا طاب لها ذلك . ان المدائن الفاضلة القديمة كلها كانت حريصة على ان تثبت فى مكان معين ، اما يوتوبيا الحديثة فستحل هذه القيود . اننا نرى بوادر الانتقال فى حياة هـذا العصر ، فلم يعد عجيبا ان ترى الرجل ينتقـل ثمانين ميـلا من داره الى مكان عمله ، او يسافر خمسين ميلا ليلعب الجولف فى وقت الفراغ ، وبات مألوفا عند الناس جميعا ان ينتقل الرجـل فى الصيف الى مصيف بعيد .. اخذت هذه البوادر فى الظهور ، ولا يمنع زيادتها زيادة سريعـة الا سوء المواصلات ، وكل رقى وتحسين فيها سيعمل حتمـا على زيادة انفصال الانسان عن المكان ، ان اهل يوتوبيا يأبون ان يستعبدوا أنفسهم لبقعة من الارض ، ولا يرضى احد منهـم ان يستقر فى مكان واحـد ليؤسس اسرة الا بعد ان يرى ما يستطيع ان يراه من بلاد العالم

اننـا اذا حللنـا هـذه القيود المكانية التى تنقض ظهور الناس بعبئهـا الثقيـل ، نشـأ توزيع جديد لعوامل الحياة ، فأسباب الحياة تزدحم اليوم حول مصادر الثروة كالمناجم والمزارع وما الى ذلك . واما فى يوتوبيا الحديثة فسيكون مكان العمل غير مكان السكن والاقامة ، اذا كان الاول لا تتوافر فيـه وسـائل النعيم والصحة

فاذا ما اقبل الصيف ارتحلت الاسر الى ذرى الجبال ومعهـم المدارس والاطباء ومن الى هؤلاء ثـم يكرون راجعـين فى اوائل الخريف .. ويعمل اهل يوتوبيا الحديثة على اطالة مدة التعليم للاطفال ، وتبذل الدولة جهدها فى ان تقلل من عدد الاطفال الذين ينشأون فى بلد حار او فى وسط سيء

وقد وجـدت الحب فى ارض يوتوبيا مطلقا حرا لاتغله القيود ، فلكل رجل او امراة ان يحب من شاء

والجامعات مراكز نشيطة بالتجارب العلمية ، حتى ليخيل اليك ان « بيت سليمان » الذى اقترحه بيكون فى اطلنطس الجديدة قد خرج الى حيز الوجود . ولا تكاد تصل احدى الجامعات الى حقيقة علميه حتى تبعث بها الى انحاء الارض طرا فى مثل اللمح بالبصر ، وبهذا يكون المشتغلون بفرع من العلم كانهم اعضاء من جماعة واحدة متضامنة ولذا ترى الابحاث العلمية فى يوتوبيا الحديثة تسير بسرعة النسر اذا قيست الى تخبط الاعمى الذى تسير به البحوث على هذه الارض

والقانون فى يوتوبيا يقف موقفا معتدلا معقولا فى التوفيق بين رغبات الاشخاص وخير المجموع .. فهم فى مشكلة الخمور مثلا يتبعون نظاما كالذى يقوم بيننا على الارض ، فتقيد الدولة الامكنة التى يضح فيها شرب الخمور وتحمى الاطفال منها ، وتفرض عقوبة على الاغراء بها . ولكن الناس هنالك يفهمون وسائل صيانة الصحة ويعنون بها اكثر مما نفعل فى هذه الدنيا . واحسب ان نصف الخمور يشربها الناس هنا لتخفيف عبء الحياة الثقيل ، ولكن هذا اللون من الحياة المقوتة لا يعرف لها اهل يوتوبيا معنى ولا يرون لها اثرا . فهم يأكلون ويشربون فى أعتدال . وانى لأوثر ان يبقى الناس على بعض الخمور الجيدة مع تقديرى واحترامى لمن امسك نفسه عن الشراب امساكا قاطعا ، أقول هذا لانى أؤمن فى يقين انى انسان معرض للخطا ، واحذر من شرب القهوة لانها تمزق المخ وتتلف الكليتين ، ومن شرب الشاى لانه يدبغ المعدة ويجعل منها شيئا يقرب من جلود القرب وخير منهما ان نشرب قليلا من جيد الخمر

ان يوتوبيا بكل مالاهلها من فضيلة وتربيه عالية وحرية ووحدة عالمية ولغة مشتركة ورحلة دائمة وتحطيم للحوائل الاقتصادية ستظل حلما لا يتحقق حتى تستطيع أن تكفى نفسها بنفسها من الناحية

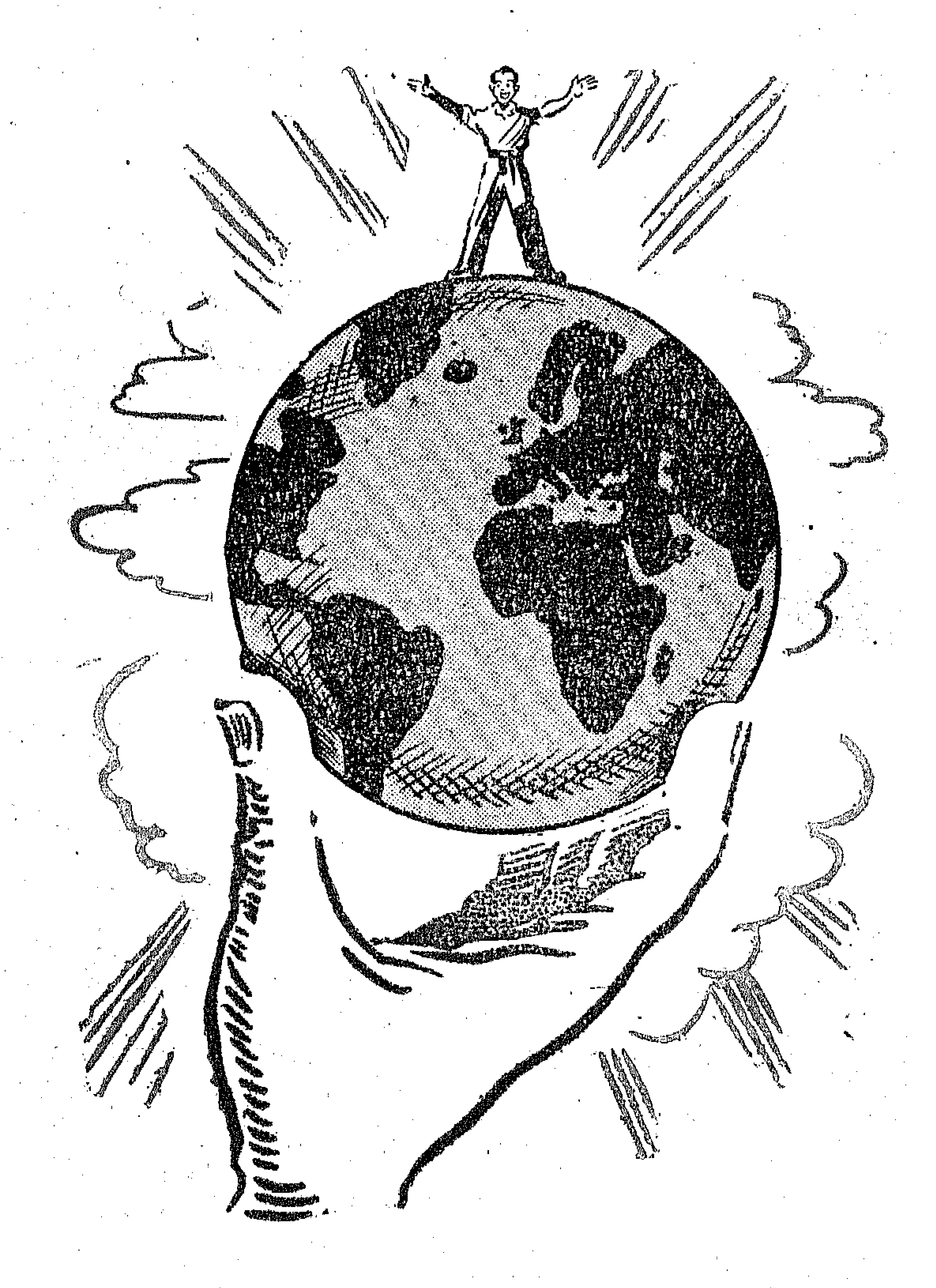
الاقتصادية • فالحرية الممنوحة للافراد لا يجوز أن يكون بينها حرية أن يظل الانسان بغير عمل يؤديه • فكل نظام وكل أمن لابد له من عماد قوى يرتكز عليه ، وهو أن يوقن الناس بأن العمل سيجد من يؤديه •• فكيف يتم العمل على ذلك الكوكب ؟

أول ما نشير اليه فى الحياة الاقتصادية فى مثل تلك الدولة التى اتسعت حتى شملت كوكبا بأسره ، والتى دأب أهلها على الارتحال المتصل ، انه لابد من وجود شىء يدل على توزيع الخدمات والسلع بين الناس ، أعنى انه لا بد من نقود للتعامل •• ولقد حدث فعلا انى وصديقى عالم النبات قد عثرنا أول هبوطنا فى كوكب اليوتوبيا على قطعة من الذهب من نقود تلك البلاد ، رجحنا انها كافية لحياتنا يوما حتى نجد فى تلك الارض مستقرنا •• لقد كانت المدائن الفاضلة القديمة تنفر من الذهب ، حتى زعم «توماس مور» انه علامة الضعة والتدهور ، وكذلك لم يرض افلاطون أن يدخل الذهب فى نظام جمهوريته ، ولكنه عاد فأجاز استعمال النقود حين عدل من آراء الجمهورية فى كتاب « النواميس » • ان هؤلاء الكتاب الذين تمنوا للذهب أن يختفى من وجه الوجود ، قد سلكوا سبيلا ضالة تعزى الى سرعة القضاء فى مشكلة معقدة تتطلب دقة التفكير وعمقه •• ان الذهب عنصر لا غنى للحياة المتسقة المستقيمة عنه • انهم ازدروا الذهب ومحوه من مجتمعهم الذى صوروه ، كأن الذهب سبب الضعة والمهانة وليس أداة فى يد الانسان يوجهها حيث شاء • ان الذهب لا بأس به ولا سوء ، ولان تمحوه من وجه الحياة وتصب عليه الزراية والغضب كأن تعاقب الخنجر لان مجرما اتخذه أداة يزهق بها الارواح !! لا ، ان المال أداة صالحة للحياة الطيبة لو استخدم استخداما صحيحا ، بل هو أداة ضرورية ليس عنها محيص فى الحياة المتمدينة ، وان يكن نظاما

معقداً فليس فى ذلك بأس ، لانه كائن كسائر الكائنات أخذ ينمو ويتعقد كلما نما . فلست استطيع ان اتصور حياة يصح أن يطلق عليها اسم المدنية اذا لم تقم على دعامة المال ، فهو عصارة الحياة فى جسم المجتمع ، اعنى أنه يوزع الغذاء ويمكن المجتمع من النمو والتمثيل والحركة والنشاط . فالمال فى لبه معناه التوفيق بين حرية الفرد فى التصرف مع خضوعه لعلاقته الاجتماعية بسائر الاعضاء ، وماذا غير المال يستطيع ان يتيح للفرد هذا القدر من الحرية الشخصية ويدفعه فى الوقت نفسه الى النمو والنشاط

لابد اذن من المال فى الدولة المثلى التى نصورها ، والذهب أفضل المعادن لذلك ، وان يكن أقل مما نرجوه كمثل أعلى لانه معرض للتدهور فى قيمته اذا ما استكشف له مصدر جديد ، وزيادة الذهب أو نقصه يؤدى الى ارتجاج عنيف فى الصلة القائمة بين الدائن والمدين .. انى لاتمنى أن تكون وحدات المجهود الجسمانى مقياسا لقيم الاشياء ، وعنده أن المثل الاعلى للعملة هو أن تصدر السلطة القائمة أوراقا مالية تمثل هذه الوحدات ، بحيث تكون قيمة الاوراق واحدة فى ارجاء العالم ، لان الرحلة من مكان الى مكان ستزداد كثرة وسرعة

ان فئة قليلة جدا من علماء الاقتصاد فى ارضنا هى التى استطاعت أن تخلص نفسها من شوائب الوطنية والسياسة أما فى اليوتوبيا فلن نرى شيئا كهذا لان الدولة عالمية لاتعرف حدودا لاوطان ، ولا تفهم معنى للصادرات والواردات ، نعم لن تقوم الشئون الاقتصادية فى اليوتوبيا على قاعدة نفسية باطلة ، ولكنها ستكون اشبه بعلم الطبيعة فى دقته .. . ولعل أم المشاكل الاقتصادية فى اليوتوبيا هى كيف نوزع النشاط المادى وكيف نطبقه ، ذلك النشاط الذى لايفتأ يتزايد بفضل تقدم



يجب أن تكون الدولة المثلى عالمية تشمل الارض بأسرها

العلم السريع . ان النظام النقدى الذى اقمناه على اساس مقدار الذهب الموجود ، وهو مقدار ضئيل ، والذى سار العمل وفقه حتى اليوم ، نظام فاسد لانه معرض للتغيرات الكثيرة ، وهو لايمهد الطريق الى سعادة الناس . أما فى يوتوبيا فيتخذون معيارا للتقويم غير هذا .

بل ان يوتوبيا لاتعرف شيئا اسمه « علم الاقتصاد » فكثير مما نعده مسائل اقتصادية هو فى حقيقة الامر جزء من « علم النفس » عند اهل يوتوبيا . فعلم النفس عندهم قسمان : علم نفس الافراد ، وهو عبارة عن دراسة العقل . وعلم نفس العلاقات التى تربط الافراد ، وهو دراسة شاملة لعلاقة الناس بعضهم ببعض فى كل ما يمكن أن يقع بينهم من صلات ، وان شئت فسم هذا القسم : علم اجتماع الناس : اجتماع افراد الاسرة ، والجيران ، واعضاء الشركات والجمعيات على اختلاف ألوانها ، والحكومة والدولة . واذن فالاقتصاد باعتباره علاقة تربط الافراد بعضهم ببعض ، جزء من هذا العلم العام — علم الاجتماع .. وهم يقسمون علم الاقتصاد نصفين : نصف طبيعى يبحث فى كيف نستمد الثروة من الطبيعة ، ونصف يبحث فى تقسيم العمل وتنظيم المجتمع بحيث يظفر الناس بثمرات الانتاج فى جو من الحرية الشخصية

وان ما ندعو اليه من وجوب التخلص من قيود التقاليد وتجرر الافراد من أغلالها ، يأخذ به اهل يوتوبيا ، وهو يعينهم جدا فى دراستهم الاقتصادية ، اذ يحللون ويبحثون فى كل نظام مهما تكن درجة رسوخه فى نفوس الناس ، ليروا ان كان صالحا حقا أو لم يكن .. . أما نحن فى هذه الارض فبحوثنا الاقتصادية ضرب من التخبط لانها مرتكزة على طائفة من الآراء والتقاليد لم نضعها موضع الدرس والتحليل ، فلابد من ثورة على علم الاقتصاد كما

هو اليوم ، لانه كتلة من الضباب الكثيف يسبح فى واد فلا ندرى من اين جاءت ولا الى اين تسير .

كانت المدائن الفاضلة القديمة دولا صغيرة ، لا فرق فيها بين الاسرة والسلطة المحلية والحكومة العامة ، حتى لقد ذهب افلاطون بالشيوعية الى اقصى حدودها ـ الى حد الشيوعية بين الازواج ! وانكر « مور » الملكيــة الخاصة وذهب الى أن تكون السلع مشاعا للجميع ، وذلك بعينــه ما دعا اليه « مورس » فى « الارض التى لاوجود لها » أما هذه « اليوتوبيا » التى نكتبها فى مستهل القــرن العشرين (١) فلا بد أن تفيــد كثيرا من آراء الحزب الفــردى من جهة اخرى بعــد ان دام بين الفريقين تناظــر فى الــرأى دام قرنا كاملا . فقد جعل النقاش بين الجانبين يعدل من تطــرف الحزبين حتى اقتــربا وأصــبح متعذرا أن نختار منهمــا مذهبا لدولتنا المثلى التى نصــورها ، ويحسن أن نأخذ من كل منهما بما يصــلح ... أن الفــرديةو الشيوعية كليهمــا تجعــل من الناس عبيــدا أرقاء . فالاولى تجعلنا عبيدا للاغنياء والثانيــة تجعلنا عبيدا للدولة ، وليس من شأنى هنا أن أقــرر أين يقــع الصواب ، ولكنى أقــول انه اذاما استقرت سياستنا واقتصادنا على اساس اشتراكى كنا اقرب الى ما يدعو اليه المذهب الفردى ... أن الدولة المثلى يجب أن تدفع بنفسها فى طــريق التقدم ولا تثبت على حال آسنة راكدة ، فلا يجوز أن تقصر مجهودها على توفير الطعــام والثيــاب والامن والصحة وما الى ذلك ، بل يجب أيضا أن تمهد الطــريق للابتكار والابداع ، وانى لازعم أن العالم لم يخلق الا من اجل غاية واحدة : هى الابتكار ، ووسيلته الى ذلك هى الابتــكار نفســه ، فالخلق والابداع وســيلة وغاية فى آن معا . والمذهب الفردى هو الذى يهيىء الجــو الصــالح للابتكار

---

(١) كتب ولز هذه اليوتوبيا سنة ١٩٠٥

المنشود ، أعنى أن كل رجل وامرأة ينفسح أمامه او امامها الطريق لتقرير فرديته وشخصيته فيحطم التقليد الشائع ، ويعتدى على العرف الجارى ، ويجرى تجاربه الجديدة ليوجه قوة الحياة فى مجرى جديد . أما ان كان السلطان كله للدولة فانه يستحيل عليها ان تجرى التجارب المثمرة الفعالة ، وأن تجدد وتقلب الاوضاع وتثور على العرف القائم بما فيه صلاح الانسانية ؛ نقول انه يستحيل على الدولة أن تقوم بهذا لانها تمثل مجموعة الشعب ، والشعب فى مجموعه اوساط لانوابغ ، انما النبوغ ينحصر فى افراد قلائل .. الدولة بعبارة اخرى تمثل النوع كله ، أما الفرد فيمثل نفسه وشخصيته ، وسنة الطبيعة هى أن يخرج الفرد ـ ان شاء واستطاع ـ على حياة النوع وينادى بأسلوب جديد فى الحياة ، فاما ان يفشل فى اسلوبه هذا فيفنى واما ان يوفق فيفرض نفسه على الاجيال المقبلة جميعا ، بما وصل اليه من النتائج العقلية والمادية والخلقية ... ان النوع من وجهة النظر البيولوجية عبارة عن مجموعة تجارب الافراد الناجحين فى العصور المتتابعة على مر الدهور . والدولة العالمية فى يوتوبيا الحديثة ستبنى شئونها الاقتصادية على تجارب الافراد كذلك ، فالافراد يقومون بما يشاءون من مشروعات ، فان أصابهم الفشل لم يأبه لهم أحد وان ظفروا بالتوفيق اضافوا تجربتهم الجديدة الى جسم الدولة العالمية الخالد

الدولة العالمية المثلى هى مالكة الارض ، وهى التى تنيب عنها حكومات محلية وهيئات بلدية فى ادارة اجزاء الارض . فتقبض كل هيئة من هذه الهيئات الفرعية على كل مصادر النشاط فى يدها لتستثمرها بطريق مباشر او غير مباشر ، وبذلك يكون المجهود البشرى وثمرات الطبيعة من فحم وكهرباء وريح وماء خاضعا كله

لسلطانها المطلق ، تصرفه حيث شاءت وتوزعه بين الافراد كما تريد مهتدية بالصالح العام . وعندئذ فقط تستطيع الدولة أن تكفل النظام والامن والعدل ، وان تهيىء أصلح الطرق وارخص وسائل المواصلات وأسرعها . وأن توزع العمل وتراقب المنتجات الطبيعية ، وأن تضمن جيلا جديدا صحيح الاجساد . وعندئذ فقط تستطيع الدولة أن تفرض على الناس ماتريد هي من مقاييس لقيم الاشياء ، وان تعاون الابحاث العلمية وتكافىء المشروعات النافعة التى قد تتعرض للخسارة لو تركت وشأنها ، وأن تأخذ بأيدي النقاد والمؤلفين والناشرين اذا مست بهم الحاجة ، وان تجمع المعلومات المفيدة وتوزعها بين أبناء الشعب .. . ان الخدمات التى ستؤديها الدولة لافرادها ستكون كماء الغيث تمتصه الشمس من البحر ليعود دافقا على سلاسل الجبال الى البحر مرة اخرى ، فالشمس هنا هى الدولة والبحر هو الشعب والقطرات التى تمتصها هى ماتجبيه من مختلف الضرائب ، تجبيه لتعود فتصبه فى البحر ماء عذبا نميرا فى جداول وأنهار تعمل عمل الافراد من أصحاب المشروعات ، فالدولة لم تقم الا من اجل الافراد ، والقانون لم يسن الا ليضمن الحريات ، والعالم كله لم ينشأ الا للتجربة التى تمهد سبيل الرقى والتقدم .. تلك هى الآراء الرئيسية التى تقوم عليها قوائم اليوتوبيا الحديثة .

ولكن اذا كانت الدولة مصدر الوان النشاط كلها ، فكيف تكون ملكية الافراد ؟ ان الرجل بغير ملك يتصرف فيه كما يشاء هو رجل سلبت حريته ، ومدى مايملك الانسان يحدد مدى مايستمتع به من الحرية ، فلو نزعت من الفرد ما يملكه ، لو نزعت منه طعامه ومأواه ، ماوسعه الا أن يضرب فى أرجاء الارض باحثا عن بديل لما سلب منه ، لان الانسان يظل عبدا

لحاجاته حتى يظفر بالاملاك التى تشبع فيه تلك الحاجات . أما ان كان الانسان صاحب ملك ولو ضئيل ، أضحى على الفور حرا فى بعض النواحى ، فتراه يستغنى عن العمل بعض الوقت ليستمتع بفراغه كما يريد ، ويجرب الوانا مختلفة من العمل حتى يقع على ما يصادف فى نفسه هوى ولذة . وان زادت الاملاك فيغلب أن يفكر المالك على الفور فى الرحلة الى أطراف الارض ، ويبنى لنفسه الدور هنا وهنالك ، وينشىء الحدائق ويؤسس الاعمال ويجرى التجارب .. ان ظروف الحياة فى العالم الارضى تتيح لثروات الافراد زيادة سريعة تنتهى بالضغط على حريات الآخرين ، فان اردنا للمشكلة علاجا ، كان من حيث الكم لا الكيف ، فنبقى على الملكية ولكن نقيدها بقيود ، وليست المسألة مسألة كيف كما يذهب بعض المفكرين ، أعنى أن المشكلة لا تتطلب قلبا للاوضاع رأسا على عقب .

وهذا بعينه ما أخذت به « يوتوبيا » فى بناء نظامها ، فقد ضربت حدا اقصى للحرية الفردية فلكل فرد مطلق الحرية فى ملكه الذى حصله بطرق مشروعة ، أعنى ماحصله بعمله ومهارته وبعد نظره وجراته ، وكل ماعمله الفرد يصبح من حقه أن يحتفظ به أو يبيعه أو يبادل به شيئا آخر .. وبذلك تصبح مشكلة : ماذا يملك الفرد ، هى : ماذا يجوز للفرد ان يشترى فى الدولة المثلى ؟

أما الاشياء التى تتعلق بشخصية الفرد فله كل الحق فيها وفى ان يورثها من يشاء... واما الاملاك الاخرى كالمال مثلا فالدولة تساهم فيه بنصيب الاسد ، لان الدولة هى المكلفة برعاية الابناء بعد موت عائلهم وهى التى ستعنى بالرجل فى سن الشيخوخة ، ولذا ستسعى الدولة ما امكنها السعى الى تشجيع الافراد بكل وسيلة ممكنة لينفقوا اموالهم الزائدة عن

حاجتهم فى أعمال اقتصادية ، أوفى ان يضيفوا الى الحياة جمالا وسعادة واملا وثروة

واريد بهذا ان الملكية نوعان ملكية شخصية يكون الفرد حرا فيها ، وملكية غير شخصية تكاد تكون من حق الدولة كلها : فالفكر الحديث ينزع نزوعا قويا نحو تحريم ملكية الافراد الارض وسائر الاشياء الطبيعية ، ولذا ترى دولة اليوتوبيا الحديثة تجعل هذه الاشياء ملكا للدولة وحدها ، قد تؤجرها للافراد مدة لاينبغى ان تطول تحوطا لما عساه يحدث فى الايام المقبلة

وما دمنا بصدد الملكية فانا نسارع الى القول بان ملكية الآباء لابنائهم وزوجاتهم ستنتقل الى يد الدولة ، وسنرجىء الحديث فى هذا حتى نبحث موضوع الزواج

اننا اذا استثنينا جانبا ضئيلا جدا من العمل كان يؤدى فيما مضى بقوة الماء والريح ، وجانبا آخر كانت تقوم به الماشية فى حرث الارض ونقل المتاع ، اقول اذا استثنينا هذه المعونة الضئيلة وجدنا أن عضلات الرجال وحدها هى التى كانت تحفظ كيان الحياة فى الدول القديمة ، فقد كان الناس فيما سلف يديرون دنياهم بأيديهم ، ولذا كان العمل الجسمانى شرطاً ضروريا للوجود الاجتماعى . فلما ادرك الانسان مرحلة من الرقى يحرق فيها الفحم ويستخرج من جوف الارض صلبها وحديدها ، تطورت المعرفة البشرية وتغيرت الظروف . فكثير جدا من نشاط الحياة اليوم نعتمد فيه على غير سواعد الانسان ، اذ نستمده من الفحم والوقود السائل والمفرقعات والهواء والماء وكل الدلائل تشير الى زيادة مطردة فى النشاط الآلى ، والى تحرر الانسان من ضرورة العمل الجسمانى . ان الآلة ستغزو الحياة الى أقصى الحدود ، ولم تطرأ هذه الفكرة على عقول البشر الا فى الثلاثة القرون الاخيرة . فلم يكن افلاطون - مثلا - يفكر قط فى ان الآلات

سيكون لها الشأن الاعظم فى التنظيم الاجتماعى ، لانه لم ير فى بيئته مايوحى اليه بذلك . انه لم يحلم بامكان قيام دولة لاتعتمد فى قوتها على سواعد البشر وعضلاتهم ولكنه رآى حوله من الآراء السياسية والخلقية مقداراكبيرا غزيرا اللهم عقله واستحث خياله فيما يمكن ان يكون ، بل لاتزال آراؤه السياسية والخلقية من الخصوبة والغزارة بحيث تكفى لاشباع الخيال فى عصرنا هذا ، اما فيما يمس الممكنات المادية فكلامه يميت الخيال ولا يستبشيره .. . بل ان بيكون نفسه فى « أطلنطس الجديدة » لم يتنبأ بكثير مما يمكن أن يطرأ على الحياة من تطور مادى .

واغلب ظنى أن غذاء عقولنا نقيض غذاء العقل اليونانى القديم، فانسان اليوم يكاد لايدهش من اى نظام آلى او اقتصادى مهما بلغت غرابته عن المألوف ، ولكنه يدهش كل الدهش حين يسمع بالنظم الاجتماعية العجيبة التى قامت فى عصر اليونان .. اننا لنعجب للنظام الاجتماعى فى اسبرطه بقدر ما كان يعجب سقراط اذا وصفت له سيارة أو طيارة

من اجل هذا بدأ افلاطون تقليدا تبعه فيه كتاب المدائن الفاضلة ، وهو ان تكون الدولة المثلى بغير آلات ولكن بشائر الحياة الآلية الجديدة اخذت تظهر عند بيكون فى « اطلنطس الجديدة » ثم زادت واشتدت فى مؤلفى القرن التاسع عشر .. اما قبل ذلك فقد كان المفروض ان يكون بين الناس طبقة يناط بها العمل اليدوى الثقيل ، وهم من سماهم ارسطو بطبقة العبيد جين قسم المجتمع الى طبقاته ،اخذ افلاطون فى جمهوريته بهذا الرأى ، وكاد يقرر ذلك بيكون ،ولم يسع « مور » الا ان يفكر فى طبقة عبيد ايضا تؤدى للمواطنين الاحرار العمل الشاق . ثم ذاعت دعوة اخرى هى ان يقوم الناس جميعا بالعمل اليدوى ، على شرط أن ينقلب الى لذة واستمتاع بعد أن كان



وأن يسود العالم بأجناسه المختلفة حب وسلام

شقاء وعذابا .. ولكنا لا نرىأن وجهة الانسانية تشير الى شيء كهذا

لست ارى ان الانسان بطبعه يميل الى العمل ، ولا أعتقد أن العمل نعمة من نعم الحياة كمايذهب أصحاب هذا الرأى . بل ان أصحاب هذا المذهب أنفسهم ليحجمون عن تصوير الجنة وحياة الراحة والخلود مملوءة بالعمل .. فلا يكون العمل محببا الى النفس متفقا مع الهوى الا ان كان مرانا عقليا او جسديا أوحى به الخيال او أملته طبيعة البدن ،وليس هذا فى حقيقة الامر من العمل فى شيء ، وهو أدنى الى اللعب والسلوى ، فالانتاج الفنى حين يصدر فيه الفنان عن دافع نفسى وحرية شخصية ، لا حين يجهد نفسه ليسر الآخرين :لايصح ان يطلق عليه اسم العمل ، فما ابعد أن تجنى البطاطس من حديقتك لتزجى الفراغ فى متعة لذيذة ، وبين أن تجنيها من الحقل لتقيم أود الحياة . ان جوهر العمل هو الاضطرار والارغام ، ووجوب تركيز الانتباه فى العمل الذى تؤديه ، جوهره أنه يقضى على حرية الانسان لا أنه يتعب أو لايتعب، وها نحن أولاء نرى ظروف الحياة آخذة فى التغير بفضل العلم الطبيعى :ولن يكون الانسان وحده مصدر النشاط وأداة العمل ، اذ ستقوم بالعمل آلات صماء ، وبذلك تنمحى الفكرة العتيقة البالية التى تحتم وجود طبقة عاملة بين طبقات المجتمع

تلك هى رسالة علم الطبيعة فى الحياة . ولكن واأسفاه ! ان العلم خادم امين لو وجد سيدا صالحا يوجهه ويمسك بزمامه ! ولكن هذا الخادم الكفء لايرى اليوم وراءه الا سيدا لم يصب من التربية الا قدرا ضئيلا لا يمكنه من الارتفاع الى مستوى خادمه !! ان العلم يهيىء للناس كثيرا من موارد الثروة وطرائق الحياة الطيبة السعيدة ، ولكن الناس ابلد من أن يستفيدوا بمايقدمه

العلم .. . أما فى اليوتوبيا الحديثة فالامر على خلاف ذلك ، الحياة كلها هنالك قائمة على العلم المادى ، وقد انمحت ضرورة قيام الناس انفسهم بالعمل الشاق ، وبذلك زال آخر سبب يبرر استعباد الافراد او الطبقات ، ويجيز ان يعلو فرد فى المجتمع على فرد آخر

انه ليكفيك أن ترى الفرقة التى نزلت بها فى أرض يوتوبيا لتعلم كيف قضى فى تنظيم المجتمع على مايسمى بالطبقة العاملة . فانت تضغط على زر هنا أو زر هناك لتظفر بكل ما تريد من نظافة وغسل وتهوية واضاءة

أما قبح الحياة مع الآلات فحديث خرافة لايسيغه العقل . ان كل شىء فى أرض يوتوبيا جميل جذاب ، لان القبح دليل النقص ، وأهل يوتوبيا قد اتقنوا كل شىء صنعا . ان الآلة القبيحة معناها أن صانعها لم يبلغ حدا بعيدا من الرقى فى صناعته ، وهو كلما أمعن فى اصلاح فنه وتكرار عمله دنا ما يعمله من الجمال المنشود . ان الحياة الآلية على ارضنا قبيحة لاننا نعيش فى مجتمع قبيح ، مجتمع يقدم على السرقة والنهب والخداع والشك . وانه لسوء طالع للالات أن تقوم فى هذا الوسط المرذول وليس هو بالخطأ الذى تسأل عنه ... اننا لو استمعنا الى من ينادون بالعودة الى السذاجة الطبيعية ، واخذنا نحطم المصانع والآلات ، ورجعنا الى الصناعات المنزلية والعمل اليدوى ورعى الغنم ، لظلت لنا سرعة اليوم ، ولا نضيف الى حياتنا الا قذارة وتعبا وفسادا ومرضا ، أريد أن فوضانا العقلية والخلقية ستنعكس فى أى لون من الحياة اصطنعناه ، ولا اصلاح الا بتنظيم هذه الفوضى

وقد ظفر اهل يوتوبيا من ذلك التنظيم العقلى والخلقى بقسط موفور . فمهندس مركبات الترام مثلا فنان بارع مثقف ،

يحاول أن يبلغ بعمله ذروةالبساطة والجمال ، كما يحاول الكاتب المجيد او الرسام القدير ان يفعل فى آيتهالفنية التىيكون بصدد اخراجها . وان الطبيعةكلها لتوحى لمن أراد أن يستمع لصوتها بالجمال والبساطة ،تراهما فى رشاقة النبات ودقة الحيوان

لنعد الى الطبيعة نستلهمهاالوحى ، فننشر بين الناس لواء الحرية خافقا كما تملى الطبيعةفى بساطتها ، وننظر الىالانسان كثمرة انتجتها الطبيعة فلا نكبلهبكل هذه القيود القانونية التى يرسففيها كلما أراد الحركة. ان صوتالطبيعة يصيحبنا ألا نجعل كل هذه الفوارق بين الانسانوالانسان ، فما هكذا أرادت بأبنائها . والطبيعة لاتعرفالمرض ، ولكن الناس احتموا منها فى البيوت والملابس والعقاقير ،وانى لاوثر أن يموت الانسانموتا طبيعيا على أن يلفظ أنفاسه بينأكداس القوارير ...

لا أمل فى الاصلاح اذا لميكن للعالم كله غرض واحد يقصد اليه ويسعى لتحقيقه ، فتظهرللانسانية ارادة واحدة تبطش بكل هذه الانقسامات التافهةالتىولدتها الانانية المقوتة ... ان أرض يوتوبيا لاتسير فى حياتها ،كما نفعل على هذه الارض ، بالمصادفات والفوضى ، بل تنظملنفسها مجهودا منسقا وخطة مدبرة ، ترعاها حكومة رشيدةونظام اقتصادى متزن .. أما هذا العالم الفاسد فالناس فيهيموتون فقرا وجوعا . ان ألوف الالوف تسلم أرواحها وهىتتضور من الفاقة والالم . ان اهل هذه الارض لايدخرونجهدافى تحويل دنياهم الى جحيم يقاسون فى سعيره العذابالاليم . هاانتذا ترى الاطفال يولدون علىصورة قذرةبشعة ،وينشأون فى غلظة وقسوةوجهل وعماء . وام الكوارث هىالحربالتى تلقى الفزع فى النفوس وتسيل الدماء أنهارا ...

كاد اصحاب المدائن الفاضلة القدامى ان ينكروا عنصر المنافسة بين الناس ، اما نحن فى هذه اليوتوبيا ، فلا يسعنا الا الاعتراف بهذا المبدأ ، الذى هو من الحياة بمثابة اللب والصميم . نعم ، قد نحاول ان ننظم هذه الفوضى الضاربة بأطنابها ، وان نبث روحا انسانية فى الصراع القائم بين الافراد ، ولكن لابد مع ذلك ان نبقى على التنافس الذى يميز بين القادرين والعاجزين

كان معظم المدائن الفاضلة القديمة يحتم أن تكون الارض السعيدة المثلى بغير تاريخ . وان يكون مواطنوها جميعا ذوى جمال ورشاقة وقوة فى العقل والخلق . ولكنا أعلنا منذ البداية اننا سنحصر انفسنا فى حدود الممكن المعقول ، فندخل الاصلاح على الحالة الراهنة بقدر المستطاع . . فماذا نحن فاعلون فى الشائهين والبله والمجانين والسكارى والاشرار والقساة والحمقى والاغبياء ؟ أن النوع البشرى لامندوحة له عن التصرف فى هؤلاء بما يضمن له السلامة والسعادة ، كما ينبغى ان يرفع ذوى الكفاءة الممتازة حتى يصعد بهم الى أسمى الذرا .

اما الطبيعة فسبيلها الى ذلك أن تقتل الضعيف وتسحق العاجز ، واداتها التى تتخذها للقتل والسحق هى أبناؤها الاقوياء الاذكياء ! ولكن الانسان حيوان لا طبيعى ، فهو ابن الطبيعة الثائر عليها ، وهو يزداد على مر الدهور ثورة على أمه التى انشأته . فسيأخذ الانسان نفسه فى اليوتوبيا الحديثة بتغيير القانون القديم الذى لم يكن يسمح للعاجزين الفاشلين ان يعانوا ويتخبطوا ، خشية ان يزداد نسلهم ، اما القانون الجديد فيحرص على الا يزداد نسل العاجزين خشية ان يعانوا ما يعانونه فى الحياة من آلام .

ان موارد العالم المادية اذا نظمت تنظيما حكيما كانت كافية لسد حاجات الاحياء جميعا . واذا كان من الممكن ان

يعيش كل كائن بشرى عيشة مرضية فى بدنه وعقله ، فلماذا لايفعل ؟ ! ! حتم علينا اذن ان نوفر الهناءة لكل فرد ، على ان نبقى على التنافس بين الافراد لنميز الطيب من الخبيث ، فنرفع القادرين ونسمح لهم بالسيادة والتكاثر . واعتقد ان حاجة الانسان الى المنافسة والنجاح والفشل لاتقل ضرورة عن حاجته فى حياته الى زمان ومكان !

ولكننا مع ذلك نستطيع ان نحصر حدود الفشل والاخفاق . ففى العالم الارضى قد بلغ التنافس حد القتال الدنىء على الطعام واللباس والمأوى . فان ظننت أن قليلين هم الذين يموتون جوعا وعريا ، فقد غاب عنك ان الطبقات الدنيا تلبس وتأكل وتسكن فى صورة زرية تعافها نفس الكريم ، وذلك معناه انهم يموتون عريا وجوعا موتا تدريجيا مجزءا ... اما فى اليوتوبيا الحديثة فلن ترى شيئا كهذا ، لان اساسا من أهم اسسها هو أن يكون لكل انسان حق اللبس والاكل والسكن على نحو معقول ... لن تدخر اليوتوبيا وسعا فى هدم المنازل غير الصالحة واعادة بنائها ، وستعنى بالمرضى من ابنائها بكل ماوسعها . وستضع الدولة حدا أدنى للحياة ، وتخلق عملا للمتعطلين دون أن تشترط ان يكون عملا يدر عليها الربح ، ولا تسمح بالزواج الآمن يتقاضى حدا معلوما من الاجر . وللكهول العاجزين اعانات مالية وبيوت يأوون اليها

اما المجانين والبله والسكارى والمرضى بأمراض مستعصية فيعزلون عن جسم المجتمع عزلا ، كما يعزل عنه اولئك الذين اعتدوا على حرية الناس كالمزورين واللصوص على ان الدولة ستسعى جهدها لاصلاح هؤلاء وعلاجهم ان كانوا فى صدر شبابهم ، فتؤسس لهم مدارس وجامعات تقوم على اسس ملائمة لعقولهم وشذوذهم .

ولن تتردد اليوتوبيا الحديثةفى قتـل الاطفـال ذوى العاهات والمرضى بأمراض فاتكة خبيثة ،لان الدولة متعد نفسهامسئولة عن سلامه المجتمع ... وعندي ان الجريمةوالمرض والبؤس هى مقياس فشل الدولة فى واجبهالان مجموع الجرائم هو جريمة المجتمع ، ومجموع امراضه هوعلته ... على أن اليوتوبيـا لن تلجأ الى عقوبة الاعـدام فى غير سن الطفولة

لن يكون اواحـد من اهـل يوتوبيا حق الحياة بلا عمـل . الا ان توفر لديه مال يتيح لهذلك فاذا لم يواصل الافراد مجهودهم فلا صحة ولا سـعادة ؛ وليس القعود عن العمل فى مصـلحة المجتمع ولا هو مجلبة لسـعادةالكسلان نفسه ... اضف الى ذلك أن الدولة لن تسمح بأموالهاالا لمن يخدم الجماعة من افرادها فان خلت يدا فرد من المال كان ذلك عـلامة واضحة على أنه متعطل لايعمل شيئا .. وبناءعلى ذلك لايجـوز لشـخص ان يتسول ولا لمحسن ان يحسن احسانا مضطربا لمن يتفـق ان يلاقيهم فى الطريق .

فان لم يجد الرجل مايعملـهقدم نفسه لموظف مسئول يعلم كيف يجد لهذا الرجل عمـلافى بلد قريب او بعيد ، ذلك لان شئون العمل فى اليوتوبيا عليهارقابة دقيقة كما يراقب علمـاء الفلك ظواهر الاجرام السماوية،فترسم المصـورات فى كل يوم لتبين اين يوجد العمل لمن يخلومنه ... عـلى ان التربيـة فى اليوتوبياستعنى بتدريب الناشئين عـلى مهن مختلفـة كيلا ينحصر الفرد فى مهنة بعينها طوال عمره فان لم يجد العامل المهنة التى يؤثرها اختار غيرها مما تعلم فى صباه ..

فان نشـأت بطالة رغم هـذا كله ، كان عـلى الدولة أن تلجأ الى تصرف اخر ... فاختـلال التوازن بين العمل والعمال يرجع الى احد سببين : اما الى زيادةالسـكان زيادة اكبر من زيادة

المشروعات الاقتصادية ،واما الى نقص المشروعات الاقتصادية بسبب انتهاء بعضها او بسبب اختراع الات توفر العمل

فأما زيادة السكان فعلاجها فى قوانين الزواج التى من شأنها ضبط عدد السكان بقدر الحاجة، واما نقص المشروعات الاقتصادية فعلاجه تقليل ساعات العمل اؤ تشجيع قيام مشروعات جديدة، او ان تنشيء الدولة اعمالا كبرى لاصلاح الطرق والمنازل وما اليها لتستوعب العمال المتعطلين

واذا كسب العامل الحد الادنى من الاجور فله الحق فى الفراغ . نعم هو حر فى ذلك مادام قد كسب لنفسه ماينفق منه على عيشه والتأمين على صحته وادخر شيئا لكهولته وشيئا لتنشيء ابنائه وان العالم ليستفيد من هذه الفئه التى يتيح لها مالها شيئا من الفراغ ، فمن الفراغ تتولد التجارب العلمية وتنشأ الفلسفة والفنون

ننتقل الان الى الامومة ومشكلة الزواج . فاليوتوبيا الحديثة لايكفيها ان تكون سليمة الافراد مستمتعة بحياة سعيدة ،بل لابد أن ترسم لنفسها طريق التقدم والنهوض من حسن الى أحسن . اما اذا ترك الناس حبل التناسل على الغارب ، فيزدادون اشباعا للغريزة المتحللة من القيود ، ويتدهورون بغير شك من سيىء الى أسوأ كما قال « مالتس » فأبلغ شرور الحياة هى زيادة السكان

وطريقة الطبيعة فى علاج هذه المشكلة هى أن تسمح للسكان بالزيادة حتى يبلغوا حدا أقصى وعندئذ يأخذ القوى فى الفتك بالضعيف . وقد اصطنعت الانسانية طوال عصور التاريخ هذه الوسيلة الطبيعية فى علاج ديادة السكان . فعدد من كان يصرعهم الجوع والمرض كان يتناسب تناسبا دقيقا مع زيادة المواليد عن الحد المطلوب . تلك كانت الحال التى أملتها الطبيعة .

فلا الطبيعة حورتها ولا الانسان أصلح فيهما ، بحيث يتخلص من هذا الثمن الغالى الذى كان يدفعه مقابل رقيه وتقدمه

ومجرد تحديد النسل لايجدى فى الامر شيئا . فبعض الامم القديمة - كالصين فى العصور السالفة - كان يلجأ اليه بوأد البنات الصغار ، فكان ذلك يفلح بعض الشيء فى حصر الوان الشقاء ، ولكنه كان يستتبع أيضا ركود الحياة وجمودها ، لان التقدم يعتمد قبل كل شيء على التنافس وانتخاب الاصلح .

اننا نستطيع أن نمحو الالم والشقاء والموت بغير أن نحول دون التطور الجسمانى والعقلى فى مجراه الطبيعى ، وذلك بمنع ولادة اولئك الذين يولدون للعجز والفشل والشقاء لو ترك حبل التناسل على الغارب . فان كانت الطبيعة التى « تلطخها الدماء نابا ومخلبا » تحفظ مستوى النوع وترقى به بقتل الضعيف او تعذيبه ، فان المثل الاعلى للمدنية العالمية هو ان تمنع اولئك الضعفاء من الخروج الى الحياة ، فلا يكون ثمة قتل ولا تعذيب . ان التنازع على البقاء بين الحيوان وبين الشعوب الهمجية ، معناه بؤس الضعيف وموته حتى لاينسل ويتكاثر ، أما الدولة المتمدينة ففى مقدورها ان تهيىء العيش الرضى لكل كائن حى على شرط أن تحرم التناسل على الضعيف .

ان الدولة الحديثة تتجه الى تحمل التبعة فى تعليم الاطفال وتغذيتهم وتوفير اسباب السعادة لهم ، واذن فمن حقها أن تقرر اى الاطفال يفتح أمامهم طريق الحياة .

وكان من راى افلاطون ان تتولى الدولة تربية الاطفال بعد انتزاعهم من حجور امهاتهم ساعة الميلاد ، وكان ذلك معقولا من رجل لم يعلم من البيولوجيا الا قليلا ، ولكنه لم يعد معقولا بعد «دارون» ، ومع ذلك فلايزال كثير من الكاتبين فى علم الاجتماع يأخذون بهذا الرأى ، ويعدونه رايا عبقريا صالحا ، فيظهر أن

هؤلاء الكتاب لم يدركوا مدى التغير الذى طرأ على معنى لفظتى « نوع » و « فرد » فى الخمسين السنة الاخيرة ، فهم لايعلمون أن حدود النوع قد فنيت وامحت ، ولم يعد سوى أفراد يتميز كل فرد عن غيره ويكون وحدة مستقلة . انهم لايزالون يظنون أن الافراد نسخ ناقصة لنوع مثالى افلاطونى كامل ، وأن الغرض من التربية هو تقريب الافراد من ذلك المثل الكامل ، كأن البيولوجيا الحديثة لم تعلمهم ماللافراد من شخصيات متميز بعضها عن بعض

فالفردية هى محور التفكير عند المفكر الحديث ، ووهم باطل ان يقال ان للدولة حق اختيار الافراد لتحسين النوع ، ويكفى هدما لهذا الرأى أن نذكر أن مستقبل الانسانية مرهون بالنوابغ الافذاذ مع ان الدولة فى مجموعها تمقت النبوغ وتمثل اوساط الناس . . فلنترك الافراد احرارا يقررون شخصياتهم وأول سبيل الى ذلك هو ان نفسح أمام عواطفهم مجال النمو والازدهار ، ولعل اسمى وسيلة للتعبير عن عواطف الفرد هى اختياره لشريكة حياته . فالفرد — لا الدولة — هو الذى يقرر من يكون زوجه الذى يكمل حياته

ولكن ان لم يكن من حق الدولة أن تفرض الزواج على الافراد فرضا ملزما ، فمن واجبها بغير شك أن تفرض القيود والحدود على تصرفات الافراد فى ذلك ، من حق الدولة أن تلزم من يريد أن يضيف أطفالا الى المجتمع بأن تكون له القدرة على تربيتهم وتنشئتهم ، وأن يكون له حد أدنى من الكفاءة والصحة ، وان يجاوز سنا معينة ، وان يكون خلوا من الامراض الموروثة وتعود الاجرام

ان اليوتوبيا تكاد لاتعرف الموت فى الاطفال الصغار ، لان ابلغ مآسى الحياة ان يولد الطفل ليموت ، مع أنه جاء ليحيا . اما

فى هذا العالم الارضى فان خمس الاطفال على الاقل يموتون صغارا ، وعلة ذلك نقص فى الطب والتمريض ، وضعف فى نظمنا الاقتصادية ، وما يسودنا من فقر ومرض . ان تسعة وتسعين فى كل مائة ممن يولدون يجب وجوبا محتوما ان يعيشوا حتى الشيخوخة

ان المدائن الفاضلة القديمة كلها قد اخطأت فى كثرة القوانين التى ارتأت أن تفرض على شئون الزواج ، اما نحن فمذهبنا الا تتدخل الدولة فى ذلك الا بالحد الادنى ، لان القانون ، فى راينا ، واجبه أن يتيح اكثر مايمكن من الحرية والابتكار

ولست ارى أن تظل المراة - كما هى دون الرجل فى حياتها الاقتصادية ، اذ لو بقيت كذلك لكان عبثا ان نطالب لها بالمساواة مع الرجل .. . نعم أن طبيعة المراة التى تخالف بها الرجل هى فى غير صالحها من الناحية الاقتصادية : فعدم قدرتها على المجهود الشاق ، وتعرضها للامراض الخفيفة آنا بعد آن ، وضعفها فى الابتكار ، وعجزها عن التنظيم بالنسبة الى الرجل ، كل هذا يقف فى سبيل مساواتها الاقتصادية بالرجل ، ولكن المراة قد استغلت هذا الضعف الطبيعى على نحو آخر ، وذلك انها اتخذته ذريعة لتشاطر الرجل مكاسبه

على أن اليوتوبيا الحديثة قد غيرت من الموقف الاقتصادى بعض الشىء ، فاعترفت بأن الامومة خدمة تؤديها المراة للدولة ، وان من واجب الدولة بناء على ذلك ان تؤجرها أجورا تتناسب مع اتقان المراة لوظيفتها تلك . اذ لا فرق بين أن يقوم فرد من الامة بتنشىء رجال الدولة وبين أن يقوم فرد آخر بالحراسة او القضاء أو الحكم او الوعظ الدينى أو القاء المحاضرات فى الجامعات ... ولذا ستفرض الدولة الحديثة للام أجرا تضيفه الى أجر زوجها ، على أن يزاد ذلك الراتب بزيادة الابناء ، وذلك

على شرط ان يكون أبناؤها فى صحة عقلية وجسمانية مما يدل على قيامها بواجبها ، على نحو مرض، وكلما ازداد الاطفال صحة وقوة زاد اجر الامومة لان الامومة الصالحة فى اليوتوبيا الحديثة مهنة كسائر المهن ، يعلو أجرها كلما زاد اتقانها

ولو اصطنعنا ذلك فى أرضنا لانمحى عناء الارامل ، وشقاء الاوانس اللاتى يحول فقرهن دون الزواج ، وتعس الزوجات اللاتى يضبطن النسل لفقر أزواجهن . ولضمنت الدولة أن ينشأ الاطفال نشأة صالحة بغض النظر عن حالة آبائهم المالية ، فلن يؤثر فى حسن تربيتهم ان يموت الزوج أو أن يسوء سلوكه او حظه

أضف الى ذلك أن الدولة اذا حرمت على الوالدين استغلال ابنائهم ، وأراحت الكهول من اعتمادهم على أولادهم ، قل الدافع الى النسل الكثير ، واكتفى الآباء بابن أو اثنين لاشباع غريزة الابوة وكفى ، ونتيجة ذلك ألا يزيد السكان زيادة فاحشة ولكن ذلك كله مرهون بشيء واحد ، وهو أن تلقى تبعة الاطفال على المجتمع

والخلاصة أن اليوتوبيا الحديثة تعد الحمل والولادة والتربية خدمة للدولة لا لفرد معين .. وذلك هو الاساس الجديد الذى يقوم عليه تنظيم الامومة

ولما كان الزواج ركنا هاما من اركان الدولة ، لانه وسيلة النسل ، ولانه سبيل الحياة المنزلية الهادئة ، لم تترك اليوتوبيا أمره فوضى ، فاشترطت له شروطا لا يجوز زواج بغيرها ، فدخل الزوج يجب ألا يقل عن حد مفروض ، وسن الزوجين لا يجوز ان تقل عن واحد وعشرين للمرأة وست وعشرين للرجل ، وغير ذلك مما يضمن الصحة والقوة للجيل الناشيء الجديد وأما علاقة المرأة بالرجل ففيهما رايان : رأى ذهب اليه افلاطون ومن ورائه اوروبا بأسرها ، وهو ان تكون المرأة مساوية للرجل فى

كل شيء ، ويتبع ذلك ان تساويه فى أعماله من حكم وقتال وتعليم وغير ذلك . ورأى اخذبه ارسطو ومن ورائه الدول الشرقيـة ، وهو أن المرأة أحط من الرجل ، ولها عمل خاص بها يختلف عن عمل الرجل ، فلها الدار وشئونها وله أعمال الحياة الخارجية .. ونحن نفضل لليوتوبيا الحديثة الرأى الاول

وأهل اليوتوبيا الحديثة ينقسمون اربع طبقات : فئة المبتكرين وفئة العاديين المتازين وثالثة من الاغبياء ورابعة ممن تدهورت فيهم الاخلاق

أما المبتكرون فأول ما يميزهم خروجهم على المألوف المعروف اذ هم يشقون لانفسهم طريقا فى الحياة ينشئونها انشاء ، ومن هؤلاء أصحاب الفن المبدعون ورجال العلم الخالقون

وأما العاديون المتازون فهم لا يشذون عن المألوف ولكنهم بارعون فى التصرف فيه ، انهم لا يبتكرون شيئا ولكنهم يحسنون استغلال الموجود ، وابرز مايميز هؤلاء نشاطهم وذكاؤهم ، ومن امثلتهم القاضى القدير والمدير الكفء والممثل البارع والسياسى الداهية ومن الى هؤلاء ... ومن هذه الطبقة العادية المتازة تتألف أركان المجتمع فى العالم الارضى . أما أهل يوتوبيا فعمادهم الطبقة الاولى

وأما ثالثة الطوائف فالاغبياء الذين أصيبوا بضعف الخيال واضطراب الفكر ، وهؤلاء عاجزون مقلدون بحاجة الى الادارة والارشاد .

وأما ذوو الاخلاق الوضيعة فهم أخلاط من الطبقات الثلاث التى ذكرناها ، ويميزهم انصراف همهم الى مصالحهم الخاصة دون صالح المجتمع

وبديهى ان أرفع طبقات المجتمع شأنا هم المبتكرون المنشئون ، بل يستحيل ان يكون مجتمع بغيرهم . . لهذا ترى الدولة

هنالك لاتدخر وسعا في استخراج هؤلاء من بين القوم ، بأن تتيح الفرصة للافراد جميعا على السواء ، الرجال منهم والنساء ، ليظهر نبوغ النابغين

وقد يجمل بي ان اسرد سردا سريعا بعض ما تحرمه الدولة في اليوتوبيا الحديثة . فهم يحرمون اكل اللحم . لانهم يمقتون ان يقيموا المذابح وان يمضغوا في افواههم الثيران والخنازير .. ويمنعون الربا لئلا يثرى رجل على حساب آخر .. ولا مراهنة هنالك ولا مقامرة ، ولا يجيزون العاب المنافسة ، ولا يفسرون الطهر بالعزوبة اذ لا تناقض عندهم بين الزواج وطهارة النفس ، ويحذرون من الاسراف في الشهوات والانغماس في الترف ، على ألا يحرم احد نفسه مما يشبع فيه الشهوة اشباعا متزنا معقولا ، فكل انسان له أن يجلس الى مائدة اللذائذ فيأكل منها ما طاب له على ان يغادرها في غير امتلاء وتخمة ... واللبس الفاخر مرذول عند السيدات ، لانه نكسة الى الوحشية ، ويؤثرون ان يلبس الناس جميعا ثيابا بعينها

واما الدين في اليوتوبيا الحديثة فأهم ما يذكر عنه أنه عندهم محصور في الفرد ، أي انه صلة بين الانسان وربه ، وينعكس الوضع لو جعلناه علاقة بين الانسان والانسان ، ومن البلاهة ان يوسط الانسان قسيسا ليكون حلقة اتصال بين نفسه وبين الله ، الا اذا جاز لنا أن نقول ان القسيس لازم لوصل قلوب المحبين

واهل اليوتوبيا يخصصون سبعة ايام من كل عام يعتزل فيها كل انسان عن كل انسان .. فيضرب في أرجاء الارض لايحمل كتابا ولا سلاحا ، وينام على فراش غليظ تحت قبة السماء ، والغاية من هذا بث الشجاعة في النفوس .. وهم في هذه الرحلات يحبون ان يرتادوا الصحراوات الافريقية والاسيوية ،

والغابات المنعزلة وسهول المناطق المتجمدة والجزر الموحشة ، وبهذا يستطيع الانسان أن يخلي بين نفسه وبين الطبيعة

ونريد أن نختم الحديث برأينا في تقسيم العالم الى أجناس . فنفس الانسان بطبيعتها تتذبذب بين طرفين : رغبة في التفرد ، وخوف من العزلة . فكل فرد يريد أن يحقق لنفسه شخصية واضحة متميزة عن سائر الافراد ، ولكنه في الوقت نفسه ينفر من انفصاله عن الناس ، بل هو على نقيض ذلك يحب ان ينغمس في جماعة يكون عضوا فيها . . شأن الفرد في ذلك كشأنه في اختيار ثيابه ، فهو يميل الى الاخذ «بالمودة» السائدة ليكون مع الناس على نمط واحد ، ولكنه يحب أن يشترى ثيابه « جاهزة » ويفضل أن « يفصل » الثوب على جسمه دون سائر الاجسام .

والتوسع في ذلك الميل الطبيعي معناه ان الانسان يحب وطنه الخاص ، ولكنه يميل الى ان يكون ذلك الوطن جزءا من العالم

غير ان رقي الوسائل المادية وتقدم طرق المواصلات في القرن الاخير ، قد حطم الفواصل بين الاوطان ، ومكن الناس من نشر الثقافة العالمية بينهم ، وذلك ما بشرت به المسيحية والاسلام في العصور الوسطى . . وكانت أولى نتائج ذلك ان اتسعت المثل العليا في السياسة ، واخذ الناس يبحثون عن اسس سياسية جديدة غير الوطنية ، كاتحاد الجنس أو وحدة اللغة ، واخيرا ولت الانسانية وجهها شطر الوحدة العالمية

ولكن حدثت نكسة في القرن التاسع عشر ، وعودة الى القول بوحدة الجنس ، وكان ذلك بسبب الانقلاب العلمي الذى شهده ذلك القرن . فما كادت تذيع نظرية دارون في التطور ، حتى فسرها الناس بضرورة أن يكون في العالم طائفة مختلفة من الاجناس المتنازعة . وكان الداعين الى ذلك قد نسوا - حين يزهو

بأجناسهم على سائر اجناس البشر ـ ان المدنية ما استقرت فى طائفة دون طائفة ، بل أخذت تتنقل على مر الدهور من هذه الفئة الى تلك . فترى الشعوب التى تتنسم ذروة السياسة فى هذا العصر تتوهم انها من جنس ممتاز ، وتظن أن المصريين واليونان والصينيين والهنود أخس منهم منزلة ، مع ان هذه كانت تسيطر فى العهود الماضية بمثل ماتسيطر به الشعوب القوية اليوم

أما الراى الصواب فهو ان حديث الاجناس حديث خرافة . وان الناس اخلاط من هذا وذاك ... وافرض جدلا أن الصينى مختلف عن الانجليزى ـ مثلا ـ فى جسمه وفى نفسيته ، فهل يؤدى هذا الى استحالة المساواة بينهما فى دولة عالمية ؟ ... ان الناس افراد ، وليسوا اجناسا ، ففرد يمتاز عن فرد . ولا يجوز القول ان جنسا يمتاز عن جنس .. فان رأيت الناس على خلاف فاعلم انه اختلاف ظاهرى فى اللغة واللون والحركات وما الى ذلك ، مما لايتعذر معه الاندماج والتوحيد . . . كنت اتحدث ـ ونحن فى كوكب اليوتوبيا ـ الى صديقى بذلك ، فدهش وقال : ولكن هل تحب ان تزوج ابنتك من صينى او زنجى ؟ فقلت له : انك تزدرى هؤلاء اليوم لقذارتهم وجهلهم ، ولكن هلا وسعت من خيالك قليلا لتفهم الفرق بين الصفات المكسوبة والطبائع الموهوبة ... اذا رأيت بعض الانجليز يدمنون فى شراب الخمر ، تجيز لنفسك ان تعمم هذا الحكم على الشعب الانجليزى باسره ؟ وان لم تجز لنفسك هذا الوثب فى الحكم هنا ، فلماذا تستحله فى اهل الصين والزنوج ، فتظنهم جميعا من صنف احط ؟

ان تآلف الثقافات والاجناس فى عالم واحد هو أمل الانسانية المنشود ، الذى لابد ان تتوفر على تحقيقه الجهود .. ان الامم تستطيع ان تلقى السلاح وتقف الحروب ، لو ارادت !

لنحطم فواصل اللغة لتسود بين الناس لغة واحدة . ولنقوض ما هنالك من حوائل اقتصادية تباعد بين الامم .. . ليكن في العالم قانون واحد ، وادب واحد .. . وامل واحد !

وماذا يمنع الانسانيــة ان تأخذ بهذا الفردوس الارضي ؟ إنها بلادة الذهن التي لا تبررها الاسباب !

مع الوفود السودانية في رحلتهم بالحوامدية

زيارتهم لشركتي السكر والتقطير وإعجابهم بالمصانع

تقليد جديد في مؤسساتنا الاقتصادية

هذا تقليد جديد فى الزيارات الرسمية للضيوف الذين يفدون الى مصر بين آونة واخرى ، تقليد يتفق مع العهد الحاضر ، بروحه ، ووثبته .

واذا كانت زيارة ضيوف مصر لمؤسساتنا الاقتصادية والصناعية الكبرى شيئا جديرا بالتسجيل ، فهى بالنسبة لاخواننا اهل السودان الكرام أجدر بالتسجيل واحق بالاشادة .

ان مصر اليوم قد تبدلت فى كل شيء فى حياتها العامة والخاصة ، فى طريقة تفكيرها ، فى أسس نهضتها ، وقد صارت الصناعة ذات اهمية بالغة فى حركتنا المباركة .

وان اخواننا أهل الجنوب عندما يزورون مؤسسات مصرية كبرى كالتى شاهدوها بالحوامدية أول امس ، انما يفعلون شيئا واجبا عليهم ، فمن حقهم ان يقفوا بأنفسهم على ما حققته مصر ، او ما حققه شمال الوادى من نهضة .

لقد قضى الضيوف وفى صحبتهم وزير الدولة السيد فتحى رضوان ولفيف من الصحفيين وقتا ليس بالقصير فى زيارة شركتى السكر والتقطير المصرية بالحوامدية وطافوا بأرجاء شركتين من اكبر شركاتنا الاقتصادية ، أما شركة السكر ، فكانت دولة اجنبية داخل الدولة ثم تمصرت على يد احمد عبود ، واما شركة التقطير فقد أسست فى اشهر معدودة وتعتبر من أحدث شركات التقطير واكبرها فى العالم أجمع .

ولعل قليلين يعرفون سياسة احمد عبود فى شركاته ، فهو يؤسس الشركات التى تعتمد فى انتاجها على مواد خام موجودة فى مصر ، حتى لا يخشى عليها فى زمن الحرب ، فشركة السكر تعتمد على القصب ، وشركة التقطير تعتمد على المولاس (العسل الاسود الصناعى) أحد منتجات عملية التكرير ، وشركة الاسمدة تعتمد على الجير الموجود فى جبل عتاقة بالسويس وشركة الورق سوف تعتمد ان شاء الله على مصاصة القصب وهكذا .. وهى سياسة تقى مصر وصناعاتها والمساهمين ايضا شر الازمات .

وفى هذا الحيز البسيط ، يرى القراء مجموعة من الصور لحضرات الضيوف

السودانيين اثناءزيارتهم للحوامدية والتىلاقوا فيها جميع ضروب التكريم من ادارة الشركتين وموظفيهما وعمالهمـا واهالىالحوامدية انفسهم وقد رحب الجميـع باخوان لهم ، اخوان من الجنوب جاءوالزيارة مصر ، فى عهد جديد سعيد
عهد الاخوة والوحدة ، عهد الاتحاد..النظام .. العمل

أقلعت الباخرة « كريم » من مرساهابالقرب من كـوبرى عباس فى السـاعة العـاشرة من الصـباح ، تقل وفـودالاحزاب السودانية برفقة الاستاذ فتحى رضوان وزير الدولة ولفيف منالصحفيين قاصدة الىالحوامدية ،فوصلت اليها بعد ساعتين

زيارة المصانع



الضيوف السودانيون ووزير الدولة بينجموع عمال وموظفىشركتى السكروالتقطير بالحوامدية اثناء زيارتهم للمصانع .

ووصلت الباخـرة فى الظهـر الىالحوامدية وكان فى انتظارها كبار موظفى مصانع الســكر والكحول فاسـتقبلوا الضيوف بالترحيب

اعتذار عبود عن مرافقتهم

وقد اعتذر السيد احمد عبود عنمرافقة ضـيوفه الى مصـانع السـكر والتقطير نظـرا لانه كان يشرف بنفسـهمنذ الصباح على الاستعداد لمباراة كـرة القدمالتىجرتفىذلك اليوم بالنادىالاهلىوالتى حضرها الرئيس اللواء اركان حرب

محمد نجيب ، وقد اناب سيادة احمدعبود مديرى شركتى السكر والتقطير وكبار الموظفين فى استقبال الضيوف الكرام والحفاوة بهم والطواف معهم بارجاء اقسام الشركتين المختلفة

تعاهدنا على الوحدة

وقال المشرفون انهم يقترحون تقسيم المدعوين الى قسمين قسم يزور مصانع السكر وقسم اخر يزور مصانع الكحول ثم يتبادلون الزيارة ، ورد وزير الدولة بقوله : اننا لانقبل القسمة ولا نرضى بها ، وقد تعاهدنا على الوحدة والاخاء ، فنزل المشرفون على رغبة الوزير ، واستجابوا لعامل الوحدة هذه فبدأ المدعوون يزورون دفعة واحدة اقسام مصانع السكر والكحول

ساعتان

وقد طاف المدعوون بجميع ارجاء المصانع ، واستغرقت زيارتهم لمصانع السكر والكحول نحوا من ساعتين ، شاهدوا فيها عمليات تكرير السكر والاجهزة الحديثة الضخمة التى تزود بها المصانع والجهود الجبارة التى تبذل



الضيوف فى شركة السكر وهم يشاهدون احدى عمليات التكرير

لاستقرار هذه الصناعة وانمائها لمقابلةزيادة الاستهلاك المحلى المتزايد على مادة السكر ، وكذلك شاهدوا عمليات ضغطالهواء واستخراج المولاس اللازم لصناعة الكحول وماكينات توليد الكهرباء وغيرهامن اقسام الشركة الهامة

مصانع التقطير

وبعد ذلك توجه المدعوون الى مصانعالتقطير المتدة بجانب مصانع السكر والمقامة على مساحة ١٢ فدانا ، وقدطافوا بأقسام المصانع المختلفة وشاهدوا عمليات تحويل المولاس « العسل الاسودالصناعى » الى كحول والادوار التى تمر بها هذه العمليات ، وشاهدوا عملياتالتخمير وتوليد البكتريا واستخراج ثانى



الضيوف وهم يستمعون لشرح احدالمهندسين المصريين بشركة التقطير المصرية انه يشرح الادوار التى يمر بها المولاسحتى يصبح كحولا او كولونيا

اكسيد الكربون اللازم لصناعة المياه الغازية فى مصر ، وكذلك عمليات التقطير نفسها ثم تحويل الكحول الى كحول وتودوطافوا بعد ذلك بمصانع الخل والمستردة وشاهدوا عمليات تعبئة الزجاجات

الكولونيا والروائح

كما شاهد المدعوون مصنع الكولونيا والروائح العطرية والبريانتين التى سوف تنتجها المصانع قريبا جدا والتى سوف تغمر السوق المحلية حاملة اسم «قسمة» وكذلك شاهدوا المخازن الكبرى المعدة لتخزين الكحول النقى وكحول الوقود



وبعد الزيارة تناول الضيوف طعام الغداء بنادى موظفى شركة السكر ، وهو ناد فخم به ملاعب وحدائق وحمام سباحة ووسائل الترفيه والرياضة لأبناء الموظفين والموظفين وعائلاتهم ، وبالنادى فرق رياضية متعددة ـ كرة قدم ، كرة سلة ، تنس .. الخ ، وهناك ناد آخر للعمال لا يقل استعدادا عن نادى الموظفين .

والتى تشرف عليها السلطات الحكومية ،وتقوم الشركة بتزويد البلاد بما تحتاجه من الكحول النقى وكحول الوقود ، وتصدر جزءا كبيرا من الكحول الى بلاد العملة الصعبة ، وقد حصلت الشركة على مناقصات كثيرة فى دول امريكا بحيث اصبح للشركة المصرية فى الخارج مركز ممتاز حقا .

جهود موفقة

وقد اثنى المدعوون على الجهود الكبيرة التى بذلت لاقامة هذه المصانع الحديثة والتى تساعد على دعم الاقتصاد القومى مما تتيح لمصر مكانة صناعية مرموقة

تناول الغداء

وبعد أن طاف المدعوون طوافهم هذا وسط ترحيب العمال والموظفين وحماسهم تناولوا طعام الغداء بنادى موظفى المصانع

العودة

وفى الساعة الثالثة استقل المدعوون والاستاذ فتحى رضوان وزير الدولة السيارات الى القاهرة مودعين بمثل ما استقبلوا به من الحفاوة والترحيب من موظفى الشركة وعمالها واداريها .وقد عادوا بالسيارات لشهود مباراة كرة القدم بين فريقى النادى الاهلى والتى حضرها اللواء محمد نجيب

تهنئة

وقد قابلت وفود الاحزاب السودانية السيد احمد عبود فى النادى الاهلى وشكروه على مالاقوه من تكريم وهنأوه على جهوده فى تصنيع البلاد وتوفيقه فى خدمة بلاده عن طريق الميدان الاقتصادى وقد طلب احد اعضاء الوفد من السيد احمد عبود الا يحرم السودان من السكر المصرى تحقيقا لعوامل الوحدة التى تحدث عنها وزير الدولة فأجاب السيد عبود بانه مستعد دائما وفى اى وقت لاجابة طلبهم ، وانه مستعد لتلبية اى طلب للحكومة فى هذا الشأن

أما الصحفيون فقد فضلوا العودة بالباخرة فوصلت بهم الى القاهرة فى منتصف الساعة الخامسة



الدكتور

فى خدمة الجميع

تصدر يوم الاثنين الاول

من كل شهر

اقرأ فى اول ديسمبر

أدب الشعب

بقلم صبرى العسكرى

لابد عن يوم معلوم ترتد فيه المظالم
ابيض على كل مظلوم اسود على كل ظالم

من الذى قال هذا ؟ ... انه ثائر مصرى من اقطاب الادب ... ولا نقصد ذلك الادب الرفيع المترفع عادة عن حياة عامةالناس ومداركهم ، والتى تكاد الصلة أن تنقطع بينه وبين واقع الحياة المصرية ..بلهذا الادب المتغلغل فى حياةابناءالشعب ونفوسهم ، والذى ياخذ بمجامع القلوبحين يروى آلام الشعب وآماله ويصور شخصيته وتفكيره ، فى امثال بلدية واغانومواويل شعبية وفكاهات ونوادر وازجال بسيطة عميقة من وحى الفطرة والتجربة صاغتها ارواح ملهمة متحررة من كلقيد منزهة عن شوائب الغرض وارضاءالاقوياء... هذا الادب .. هو أصدق راوية لتاريخ الشعب وأوضح معبر عما مر به من عهود ضعف وظلم وكبت ، وما نامل فيه من قوة وعدل وحرية فى عهدناالجديد

انه الادب الذى ينطق كل سطر منسطوره بانه من الشعب والى الشعب .. فانتظروا ... « أدب الشعب » ...

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيدة

صاحبة الامتياز: شركة التوزيع المصرية شركة مساهمة مصرية للنشر وتوزيع الصحف

عضو مجلس الادارة المنتدب : السيد ابو النجا

رئيس التحرير المسئول : فائق الجوهرى

مدير الادارة : أمين عدلى

الاشتراكات { ٧٠ قرشا فى السنة فى القطر المصرى والسودان
٩٠ فى الاقطار العربية الداخلة فى اتحاد البريد ١٢٠ فى الاقطار الاخرى

الادارة ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة . تليفون ٢٧٢٠٠



« طبع بمطابع جريدة المصرى »